

عالمية



روایات

# الأينبي



إهداء 2006

الدكتورة / أماني عبد الرازق خاطر  
الإسكندرية

# روايات عالمية



العدد رقم ٢٦٧



# الابن

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

الكاتب القرطبي الكبير :

جورج سيمون

عرب

الطبعة: حسن محمد أصلا



## الفصل الأول

« ولدى »

هل ياترى ستتبسم حين تقرا هذه الكلمة وتشعر بمدى  
حيرتى واضطرابى وأنا أكتبها لك ؟. فمئذ سنوات طويلة لم اسطر  
لك حرفا ، اظنه منذ كنت طفلا نرحل بعيدا عنى فى رفقة والدك  
فى عطلاتك الدراسية وتضطربى اعمالى للبقاء فى مكتبى ، وكنت  
أحصك وقت ذاك بسطر او سطرين ابوءهما عادة بكلمة « بنى »  
وأحيانا « طفلى » او فتاى الصغير ، ولكنى أرى ان كلمة « ولدى »  
تحمل فى معناها وبين نناياها كل الحب والقوة والامراز ، ومع  
ذلك فهى تبعث فى نفسى احساسا من الكآبة والحزن ، وكأنى أكتب  
وحينى !

ومهما كان الامر فلا مفر لى من ان أبدا رسالتى بطريقة ما ،  
وانى لاشعر الآن بمثل ما كنت اشعر به حين كنت أدخل عليك  
غرفتك فألقاك فارقا بين كراساتك وكتبك ، فأقف مترددا لحظات  
متهيئا كأتى فى محراب ، ثم أجلس على طرف فراشك وفى  
النهاية انشغل بأشغال إحدى سجانى .

ولعل أكثر ما يضيقنى انى لا أعلم - يقينا - متى سنقرأ خطابى  
هذا ، او ما عساك تشعر به وقتئذ ، ولا أخفى عنك انى طالما فكرت  
فى بادئ الحال فى ان اتحدث اليك بنفسى ، ولذلك كنت أحضر  
الى غرفتك فى الفترة ما بين عشائك وأوبتك لفراشك ، ولكن  
صدقتى يا ولدى ، كانت الكلمات تحببى فى حلقى فأظل جالسا  
على حرف سريرك أتأملك بقلبى قبل عينى ، وأنت مكب على كتابك  
معللا نفسى بالصبر حتى ترفع رأسك وتلفت نحوى قليلا وأنت  
تغمض فى شروود . « آه ! وكيف الأحوال ؟ » .

لم يكن بيتنا الكثير مما يقال ، وفى الواقع لم تكن نسمع بحاجة  
لتبادل أى حديث ، ولا أعلم هل كان سبب ذلك تحفظ كليتنا فى  
علاقته بالآخر ، أو بعده عنه بقلبه وأفكاره ! .

وعلى أية حال فلاشك ان الكتابة اليك أيسر شأننا من الحديث  
معك ، ففى وسعك أن نصيد القراءة مرات ومرات ، فتكتشف فى كل  
مرة آفاقا جديدة تساعدك على العثور على اجابات لتلك الأحاجى

التي كانت تحرك من حين لآخر ، وإن كانت ماثزال كلها أو بعضها على الأقل تسبب لي كثيرا من الآلام والقلق والأحلام المزعجة !..

حاولت - كما ذكرت لك - مفاتحتك بالحديث ، وبالتحديد منذ الثالث والعشرين من أكتوبر صبيحة يوم دفن والدي .. بل أنني لا أزال أذكر تلك اللحظة التي اتخذت فيها قرارى المذكور .

كان ذلك فى كنيسة « لوفيسينيه » حين كنا نقف جنباً الى جنب فى الصف الأمامى على يمين الثابوت الكبير ، وصوت الأرغن يداهب أوتار القلوب وينسف الأسماع ، والدلك تقف مع شقيقتى أمام الميكل ، وباقى السيدات ينتظرن فى الخارج مع ممسك « بيرفانشيه » .

ولم يكن عدد شهود الصلاة كبيراً : القس وغللمان يرددان الإناشيد ثم ضارب المرق ، ونحو ثلاثين شخصا تركت أقدامهم الموحلة آثاراً فوق الأرض الرخامية الناصعة البيضاء ، حيث كانت السماء تمطر مداماً منذ الصباح ، وكنا قد مشينا خلف الجثمان من البيت حتى الكنيسة .

فى تلك اللحظة فقط ، اكتشفت فجأة أنك أطول منى ولوشق قواماً فى معطفك الأسود الجديد الأنيق وشعرك المرسل الطويل الذى تعتقد أنك أنه أطول مما يجب ، ووجهك التحيل وقد رفعتة شامخاً يأنفك فى تحد للناس أجمعين ، ومن عينيك المبتئين للامام ، كانت تنبعث نظرات قوية .

لرى كم مرة فى حياتك دخلت فيها بيتاً من بيوت الله ؟ وهل تشعر فى نفسك برهة حينما تشهد تلك الطقوس الدينية التى تجري امامك ؟

لقد وقفنا معاً فى ذلك المكان المقدس فى مرة سابقة تشابهت هذه الظروف تماماً ، ولكن قبلها بيضعة شهور وفى الثالث والعشرين من يناير الماضى « اليوم نفسه من الشهر ، اليس هذا صحيحاً ؟ » وكان ذلك بمناسبة وفاة أمى - جدتك - وزوجة الرجل الذى يرقد الآن فى الصندوق تحت الغطاء الأسود ذى الصليب الفضى .

ولم أكن - حينما واربنا جثمان جدتك بالثرى - قد أقيمت اليك انتباهاً ، إذ كنت أظنك مجرد طفل - برقم نجاوذك عامك



السادس عشر : ولكنى وقد رمتك بطرف حينى الآن شعرت بأن من كان يقف بجانبى رجل وشيد ذكى القلب دقيق الملاحظة يسجل كل شئ ، فى ذاكرته .

وحين كنت تأتى معى الى « قصر ماجالى » كنت تنقل بصرفائى أرجائه دون أن تنبس حرفا ، ذلك القصر العتيق الذى عاش فيه أبواى . والذى لن يسكنه أحد من بعدهما ، ولن تعود لنا به صلة بعد الآن ، كنت المحك وكانتك ترسم فى ذاكرتك أدق التفاصيل . وقد استعصت خلال الأيام القليلة الماضية الى ما كان يدور من الحوار والنقاش العائلى فى أمور الجنيزة دون أن تفتح فاك بكلمة وقد ارتسم الضيق والملل على محياك وبك رغبة ملحة فى أن تنتهى من ذلك الأمر المكروه سريعا .

كذلك كنت أنامك طوال الشهور الماضية حين كنت ادعوك أيام الأحاد لمرافقتى فى زيارة قصيرة لجدك حيث تضى معى بضع لحظات قد تشبع فى نفسه الرضا والسرور ، فكنت أقرا فى ملامحك معانى الرفض والضيق لم فى النهاية كنت تأتى معى بغير حماس أو رغبة صادقة .

أنا لا ألومك مطلقا يا بنى ، واظننى أفهم شعورك .

ولكن لمة حقائق كثيرة أود أن تعرفها لمصالحتك ومصالحتى ، كذلك لمصلحته هو ، ذلك الرجل الذى يرقد فى الصندوق والذى تشيعناه منذ قليل ومعك عمك فأشبهه حتى القابر .

وليس مجرد الشعور بالخرج هو الذى تمنعنى من أن أصارحك بها شفاهة بنفسى ، فقد رأيت أن الحكمة تقتضى أن اثريت بعض الوقت قبل أن أواجهك بها ، « ولا أدري متى يطول انتظارك وانتظاري » ، ومن ثم رأيت أن الأفضل أن أكتب كل ما فى قلبى بين هذه السطور ، وسبقى مكانها حتى تقرأها وقد أصبحت زوجا وأبا وتتخذ بنفسك قراراتك دون أى تدخل أو تأثير متحملا كل التبعات والمسؤوليات .

لأن ، نعم الجائر أن يقرأ جان بول - ابن السادسة عشرة هذه الكلمات ، كذلك من المحتمل جدا أن يقرأها نفس الشخص وقتها لهذا بريلا جليل الكلمة ، وخط الشيب شعره ، مهيب الطلعة فهو

الثلاثين أو الأربعين من عمره ، أو ربما في مثل سننى - أرداد  
 بالحياة خيرة ويتصرفات الزمن علما ، سائرهما لك لتقرأها بمد  
 وقائى ، ولا اظن أنك ستنتظر طويلا ، فلن أبلغ أيا ما وصلت اليه  
 أبى العجوز التى عاشت احدى وثمانين سنة أو أبى الشيخ الذى  
 مكث حتى السابعة والسبعين .

لا تبتسئ ، فانا لا احاول استدوار عاطفتك ، فالموت حق ؛  
 ونحن آل فرسوا لانخشاه أبدا ، بل على النقيض اننى ابتسم  
 حينما اتخيلك فى مثل عمرى ، تتحمل الهموم وتفكر فى ابنك  
 الذى سيرث اسمك ، وفيما عليك ان تحكم به على ايك وجنك .



ولا تدهش اذا بدأت حديثى معك عن الحاضر ، قيل ان اغوص  
 بك فى اعماق الماضى وهو لب الموضوع ، فلذا كنت نسام ذلك لان  
 هذا الحاضر هو الذى تعيش فيه ، وتعتقد - كما اعتقد انا - أنك  
 تعرفه كما تعرف ما فى راحة يدك - فانه سوف يلقى شعبا ما من  
 نور على ذلك القديم ، فيجعلك اصدق حكما واصوب فهما .



ان عائلتك لتتألف اليوم منك ووالدتك وشقيقاتى آريئت  
 وزوجها قاشيه ، وقبل شهر سنة كان هناك ايضا جدتك وجدك ،  
 واكبر الظن ان كلا منهما قد ترك فى نفسك آثارا يختلف عن  
 الآخرين ، وكان بودى ان اعرف رايك فى كل فرد منا : فى جدك ،  
 فى امك ، او فى انا شخصا ، واى فكرة يا ترى قد كونتها عنى كما  
 ترائى ويرانى الناس . . ثم بعد ان اقصى عليك وقائع هذه القصة ؛  
 ولقد كانت اسرى اقل من اسرتك علدا ، لم تزد قط على أبى  
 وامى وشقيقتى ، ثم بعض الاقارب منهم احياء انقطعت صلاتهم بنا  
 او اموات تحت الثرى فى الرموس !

ولست ادري تعالما متى اكتشفت حقيقتى فى تلك المجموعة ،  
 فلذا بى لست الا قطعة من محرك ضخيم يدور باستمرار على من  
 الاجيال والستين ، غصنا رقبيا فى شجرة ضخمة تمتد جذورها فى  
 الاعماق ثابتة راسخة ، تلوى غصونها بتغير الفصول ، ولا تلبث

حتى تثبت لها برامج جديدة تأخذ دورها الجديد في الحياة وهكذا يحلف الأبناء الآباء والأجداد وتبقى الأسرة المربقة على مر الزمان ولا جديد تحت الشمس إلا الأسماء والوجوه ، وهكذا أيضا كان جدك ، وقبله أبوه ، ثم أنا وأنت ، وابنوك من بعدك الذين سينجبون لك حفدة والحرك الضخم يدور مدارت الدنيا حول نفسها !

والآباء لا يعيشون إلا من أجل أبنائهم . .  
واعتقد أن عيني تفتحن على تلك الحقيقة وأنا في العشرين من عمري ، في وقت يعاصر تلك الأحداث الهامة التي سوف أرويها لك فيما بعد . .

ولعلك قد أنصت مذهولا لتلك المناقشة الحادة التي دارت بيني وبين فاشيه زوج عمك ليلة وفاة جدك ، وكنت أرمفك في اتباه لأعرف صدي ذلك في نفسك ، وفي أي جانب منا تقف ؟ ولكنك اكتفيت بالصمت .

فقد كان جدك - ومنذ بداية هذا القرن - منسكرا لكل دين سماوي وكل الناس يعرفون منه ذلك . مكتفيا بالانتماء إلى أحد المحافل الماسونية ، ولذلك لم أر كاهنا أو قسا يدخل دارنا قط ؟ ولم ألق في طموثي أو صباي حرقا من أي كتاب مقدس وماوطئت قلماى عتبة أي معبد أو كنيسة ، وكذلك نشأت أنت ، وفي الوقت نفسه لا أذكر أنني سمعت قط أحدا في بيتنا يتحدث أو يناقش في الدين أو يهاجم أحدا في معتقده .

وكانت جدتك كذلك أيضا حتى قبل العام الأخير من وفاتها . إذ فوجئنا جميعا وقد أصبحت كاثوليكية متمسبة ، وأوصت في الحاف شديد أن يقام لجثمانها بعد وفاتها طقوس دينية كاملة . . ولم تكن أنت موجودا لتتري تحفة « فاشيه » الكبرى ، حينما لاحظ أنهم يملكون إحدى غرف القصر في « لوفيمسنيه » لبيتنا فيها جثمان جدتك بين الصليبان والشموع ، إذ لم يكن في البيت ظرف مدة لذلك ، فتارت ثورته لما شاهد أمي راقدة مغمضة العينين ملثمة الفكين تطبق أصابها المخشبة على المسبحة وفوق صدرها الصليب ، فصاح محتجا رافعا يده في وجه ابني مهددا !  
- أو سمحت للقس بأن يلا عتبة هذا البيت !

ولقد ارتج على جلدك ، وامتنع لونه وهو الذى كان يرقم بلوقه  
السابعة والسبعين ما يزال مشهود القسامة مرقوع الرأس ..  
لارتج عليه ولم يجد جوابا .

فَنَظَرَ نَحْوَى فِى حَيْرَةٍ كَأَنَّهُ يَسْتَلْهِمُ الْمَوْتَةَ ، تَوَاجَهْتَ قَاشِيَهُ  
وَأَجَبْتَهُ فِى حَرْمٍ :

— هَذَا مَا أَوْصَتْ بِهِ أُمِّى قَبْلَ وَفَاتِهَا ، وَلَابدَ لَأبِى أَنْ يَحْتَقِ لَهَا  
وَقَبْتَهَا الْآخِرَةَ !

وَزَادَ قَاشِيَهُ كَالْأَسَدِ الْجَرَجَ :

— الْإِ يَدْرِكُ هُوَ أَنَّهُ بِذَلِكَ التَّصَرُّفِ يَجْعَلُنَا أَضْحُوكَةَ بَيْنَ النَّاسِ ؟

« وَلَمْ يَكُنْ هُوَ إِلَّا ابْنِى » ..

وَكَانَ قَاشِيَهُ مَا يَرَالِ هُوَ ذَلِكَ الشَّابَّ الْأَصْفَرَ النَّحِيسِلَ الَّذِى  
تَحْطَبُ شَقِيقَتِى فِى أَحَدِ الْأَيَّامِ ، لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ فِى شَكْلِهِ أَوْ وَزْنِهِ  
فَوَهْمَا وَاحِدًا بَرغمَ مَرُورِ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ ، وَكَانَ فِى ذَلِكَ الْوَقْتُ  
رَئِيسًا لِلْكَتَبَةِ فِى مَقَاطِعَةِ « شَارُنْتِى » الَّتِى كَانَ جِلْدُكَ حَاكِمًا حَامِلَاهَا  
يُعِيدُ أُنِى سَامُودَ إِلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى .. أَمَّا الْآنَ فَهُوَ مِنَ الْأَعْلَامِ  
الْمَشْهُورِينَ مِمَّنْ يَنْشَارُ إِلَيْهِمُ بِالْبَنَانِ ، وَيَحْتَلُّ مَرْكَزًا وَلِغَا أَلَسْبِهِ  
ثِقَةً فِى النَّفْسِ وَعِنَادًا فِى الطَّبْعِ رِيمًا وَصَلَ إِلَى حَدِّ الْقَحَّةِ إِيكَادِمِنْ  
يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ هُوَ يَتَحَدَّثُ بِتِلْكَ الْأَلْهَجَةِ لَبْلَةً وَفَاةً أُمِّى يَظُنُّ أَنَّ أَسْرَتَنَا  
لَا تَتَكُونُ إِلَّا مِثْلَهُ فَقَطْ ، وَكَانَهُ صَاحِبَ الْحَقِّ وَحْدَهُ ، فِى التَّحَدُّثِ  
بِلِسَانِهِ وَالتَّصَرُّفِ فِى شُؤْنِهَا وَأَنَّهُ الْمَثُولُ مِنَ الْحَفِظَانِ عَلَى  
أَكْرَامَتِهَا وَهَيْبَتِهَا !

— « أَمَّا كِفَاكُمُ مَا فَعَلْتُمْ ، كَلِمَةً لِلْإِسَاءَةِ إِلَى سَمْعَتِى وَأَسْمَى ! »

وَلَقَدْ كَرِهَ — بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتَّةِ شُهُورٍ — تِلْكَ الْعِيسَارَةَ أَمَامَكَ :

لِجَقْطَبَتِ جَبِينِكَ دَهْشَةً مِمَّا جَعَلَنِى مُضْطَرًّا لِأَنَّ أَذْكَرَ مَا حَدَثَ فِى  
الْمَرَّةِ الْأُولَى ، وَلَابدَ أَنَّكَ فَكَّرْتَ طَوِيلًا فِى مَعْنَاهَا ، مَا لَمْ يَكُنْ هُوَ  
أَبُو شَقِيقَتِى أَرَلَيْتَ أَوْهَمَا مِمَّا قَدْ ذَكَرْنَا لَكَ شَيْئًا دُونَ عُلْمِى .

وَلَمْ يَتِمَّكِنْ بَرغمَ عِنَادِهِ ، مِنَ الْحِيلُولَةِ دُونَ حُضُورِ شَقِيقَتِى  
لِلصَّلَاةِ عَلَى جِثْمَانِ أُمِّهَا فِى الْكَتَيْبَةِ ، لَكِنَّهُ ظَلَّ جَالِسًا فِى سِبَارَتِهِ  
إِلَى الْخَارِجِ وَأَمَامَ النَّاسِ عَلَى قَلْوَةِ الطَّرِيقِ !

وَلَقَدْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ الْمَشْهَدُ بَعْدَ وَفَاةِ ابْنِى وَلَكِنِّى تَحَمَّلْتُ وَحْدَى

المسئولية كاملة رغم ان أبى لم يطلب منى قط ان تقام له جنازة دينية ، فلم يحدث بيننا خلال تلك الشهور القليلة او طوال حياتى أى حديث فى الدين او الفلسفة السياسية .

كان يعيش فى الفترة من يناير حتى أكتوبر وحيداً فى ( لوفيسينيه ) ، تقوم بخدمته عجوز تحضر فى الصباح لتصد له طعامه وقراشه ، ثم تنصرف الى بيتها وزوجها كل مساء .

اتراك تفوك معنى الفراغ والوحدة لرجل مسن فى بيت كبير متعدد الحجرات ، وكان فى وقت ما يشغل منصبا حطرا ترمقه الأبصار وتحنى له الهامات وترمقه الميون فى اجلال واحترام ؟ ولعلك لم تتأثر بوفاة ذلك الرجل كما لم تتأثر بوفاة زوجته فى أثناء اشتراكك بامتحان الشهادة الثانوية ، لأنك كنت قليل الاختلاط بهما ، والزيارات النادرة التى كنت تصحبى فيها لرؤية جلدك الشيخ كانت تسبب لك صداعا وملا : فالقصر فى ذاته لم يعد يلائم جلدك الحاضر ، والكربات التى اعتدت ان اجعلها موضوع حديثى مع جلدك فى حضورك لم تكن تترك او تهك ، ثم انه قلما كان يوجه اليك خطابا ، وربما تمجبت من ذلك وساءك الا بمسرك اقتباها ، لكنه كان يختلس النظر اليك بطرف عينه ، ثم ينظر لحوى ، فهل حطرت ببالك ماذا كان يعنيه بتلك النظرات ؟ ومع ذلك فقد كان من واجبي ان اجمله براك ، وكنت أعلم انه يشعر بالسرور العميق لذلك ، وبعد فترة كنت أنظر فى ساعتى وأقول لك صوها :

— اما قلت لى انك متقابل بمض اصدفانك فى الخامسة ؟ ولم اكن اعرف شيئا عن اصدفانك او موايدك — وليس ذلكا عتابا — فكنت تقف خجلا مستأذنا فى الابصار وتمدد يلك فى ارباك قائلا :

— الى اللقاء يا جدى .

وكان يجيبك كما اعتاد ان يجيبنى وكما افضل معك الآن :

— الى اللقاء يا ولدى .

والقبيلات لا تعرفها أسرة لافرنسوا حتى فى طفولتى كنت اطيع لكاهها شح قبلة على خد أبى وامى ثم انصرف مستاء .

وكنّا نرتبك وانت تتصرف ولعلك توهمت انى اعجل فى  
 انصرافك لتحلى لى المكان لتبادل حديثا لا تصب ان نسمعه ولكنك  
 تخطئ فى ذلك ، فالتى كلن يحدث بينى وبين أبى هو الشئ الذى  
 يحدث بيننا - حين ادخل غرفتك واجلس على طرف فراشك  
 مفكرا . هكذا اعتدنا ان نجلس معا بين الظلال وكل منا غارق فى  
 افكاره ، وحين نتمب من طول الصمت يقطعه احدنا فيتحدث عن  
 كتاب او حادث ما او عن شخص يعرفه كلانا او عن الدواء الذى  
 كان أبى - خلال شهوره الأخيرة - يتناول منه اتواما كثيرة .  
 بيد أننا لم نتحدث عن جدتك ، او عن « لاروشيل » او من اقام  
 فيها من الناس : او ما وقع من الحوادث فى عام ١٩٢٨ .

ولعلك تظن ان حيننا من الدهر قد انقضى منذ ذلك الوقت ؟  
 فانت نفسك لم تظهر لى الوجود الا عام ١٩٤٠ وهو عام من التؤكد  
 انه قسم التاريخ قسمين .  
 ولكن بخيل الى ان تلك السبعة قد انتهت بالأمس فقط ،  
 فالسنوات تمضى سراها حتى لارتاب فى اتى حقيقة قد بلغت  
 الثامنة والأربعين من عمري ، وفى ان من واجبى -سواء رضيت ام  
 أبيت - ان أبذل التضحيات التى بدلها أبى نحوى .

وبعد فمن يدري ؟ ربما شامت القادير ايضا ان اشهد نهايتى  
 فى ذلك القصر القديم فى «لوفيينه» لولا اصرار شقيقتى  
 وزوجها - لافتقارهما الدائم للمال - على بيعه .  
 لا تنزعج فانا احدث ما يدور ببالك ، ولست حزينا على فقدمة  
 بل ما أردت ان اشير اليه انما هو كتابة من رغبتي فى ان اقول لك  
 ربما اضطرتت با ولدى يوما ما الى ان يجلب ابنك الصغير من يده  
 ليزور أباه المتقاعد الذى اشد به الهرم وهو كاره لزيارتي !  
 ابتم ابها الصغير ، واقسم لك ان حديثى اليك لن يكون بعدئذ  
 كشيأ او حزينا .

ولكن ينبغي أولا ان انتهى من موضوع الوفاة والجنائز ، ولست  
 أبجد تفسيراً لما يعتمل فى نفسى من القلق بخصوصها ، حقا كان أبى  
 ينكر الأديان جميعها ، انحدر من أسرة عريقة رفيعة وادى للدولة  
 لخدمات جليلة ، فهل كان من البنائين الأحرار ، لست واثقا من

ذلك . ولولا عك قاشيه ما خطر ببالى شيء من ذلك ، فقد أشاق  
لى مؤكدا انه كان يشغل مركزا هاما فى الطائفة الماسونية ، وان  
المحفل قد ساعده عام ١٩٢٨ وخفف من هول المصيبة التى وقعت  
أن ذاك .

واعود فأكرر انه لم يصارحنى حتى وفاته بأية رغبة أخيرة  
يطلب منى تحقيقها .

وإذا كنت قد ادخلت جناته الى الكنيسة فذلك لاني توهمت  
انه كان يتمنى ذلك ويرغب فيه من صميم قلبه وان لم يظهره على  
لسانه ، أما ان كنت مخطئاً فى ظنى فلانا التمس منه الصصح  
والعذرة .

هذا عن جلدك ، أما من جلدك فلا اجد فى نفسى الشجاعة  
لأسألك عما تذكره فى طفولتك عنها ، ولم يقع بصرك عليها الا وهى  
جثة بطيئة الحركة متورمة الجسم ، هدها مرض الاستسقاء ، وملا  
ساقها بالماء وفى عينيها نظرة غريبة بلهاء !

لم تات لرؤيتك منذ ولادتك ، فقد كانت تلازم البيت لمرضها ،  
لحملتك اليها بعد شهر من ولادتك حتى تراك .. وكان فى يوم  
أحد من أبريل ، طقسه جميل رائع وشمس دافئة ساطعة ، وكنت  
قد وصلت ومضى أمك توا من باريس فهبطنا المحطة الجميلة  
واخترقنا حديقة قصر ماجالى الياقعة الزهور والتى تصح فيها  
الطيور ، ولكنا ما كدنا ندلف الى الداخل ، داخل تلك الغرفة الكئيبة  
المظلمة ذات السقف المنخفض ، والتى اعتاد ابواى الطوس فيها  
بجوار المدفأة المتيقة التى تتصاعد رائحة دخانها فيزهق الانفاس -  
حتى شعرنا باننا تركنا الحياة وراعنا فى الحديقة ، واننا نطأ عتبة  
عالم آخر ! مقبرة هشة يخيم عليها شبح الموت الرهيب !

وقال ابى مخاطباً امى التى كانت تجلس فى مقعد كبير ذى  
ذراعين :

- هذا هو حفيدك جان بول !

فنظرت نحوى تحدثنى بعينين جامدتين ، ولم يشرق وجهها  
حتى بشبح ابتسامة ! ومدت ذراعها فى صمت ، وفى تلك اللحظة  
لمحت العزع والتردد واضحاً على أمك التى نظرت نحوى مستفجرة .

وامسكت انا انفاسى خشية ان تفلت كتلة اللحم الصغيرة التى  
هى انت ، من بين يديها البيطيتى الحركة بسبب اهتائها وضعفها .  
ولكن امك كانت تفكر بطريقة اخرى ، لعلى كنت اشلركها فيها  
بضميب ، فقد خشيتا ان لحل بك اللثة يا ولدى ونحن نسلمك  
يا من تمثل الامل والمستقبل الى يد الفناء والشيخوخة والهرم .  
ومعلمة اذا اعترفت لك بانه قد ضايعنى حين ذلك ان ارى تلك  
السيدة التى كانت سبب وجودى وارفعتنى بين يديها وحملتنى  
بين ذراعيها . . تنحنى فوق وجهك الوردى الصغير ، وفوق شفئك  
الجميلتين الطاهرتين اللتين لم يلصهما انسان حتى يلوثهما بانفاسه  
الحارة !

لم لم تمرك بعد ذلك اهتماما ، وعندما تعلمت المشى وكنتا  
نلج مع بعض الاطفال فى الحديقة فنتمثر ونسقط . كنت تسبىح  
لها رعبا شديدا كلما صرخت او بكيت بصوت مرتفع ، فقد كانت  
اقل الاصوات تسبب لها خوفا وانزعاجا .  
وكان ابى يكرها باربعة اموام فقط ، لفرق بسيط ربما يلاحظه  
من فى عمرك ، ولا يلاحظه اى انسان بين رجل و زوجته بلقيا هذا  
القدر من الشيخوخة .

ولا بد انه من بين تلك الذكريات المحفورة فى ذهنك من  
«لوفسينيه» ، صورة جدتك وهى فى مقعد الكبر بجوار المدفأة  
مكانها الذى لم يتغير قط ، وربما هجبت فى نفسك من انها لا تؤدى  
اى عمل فى الدار ، حتى فزل الصوف او التطريز الذى اعتادت كل  
امراة ان تشغل نفسها به ، ولم تكن تقرا ايضا وليس فى الدار  
مديباح ، فكانت تجلس ساكنة فى مقعد عيناها مشغولتان الى  
الامام ، لانيس باى حرف فاذا ما سقطت احدى الجسرات  
المشتملة من المدفأة فوق السجادة لم تكلف نفسها عناء الانحناء  
والنقاطها !

والذكر ان ابى كان - ذات يوم - خارج البيت الى مهمة عاجلة  
وكانت مدام برين قد انتهت من عملها وانصرفت لمنزلها ، وحين  
عاد وجد قطعة خشب مشتملة سقطت من المدفأة فاحترقت دائرة



متسعة من خشب الأرض هذا وامي جالسة ساكنة تنظر في بلاعة  
كان الأمر لا يعنيه!

انكره ان تكون مثل هذه العجوز المسكينة جدتك ؟

وما قولاك لو علمت انها كانت في شبابها مثقال الحيسوية  
والنشاط تمضي معظم عطلاتها ونزهاتها في الحديقة التي كنت تلعب  
فيها في صباك ، وقت ذلك كانت جدتك احدى بطالات الكروكيت ،  
تتردد ضحكاتها المرحية بين ارجاء القصر ، لقد ذكرتني أنت بذلك  
حينما عثرت منذ أيام على مضرب صديء من الحديد في الحديقة ،  
وسألتني ماذا يكون ؟

ولم يكن قصر ماجالي - كما تراه الآن كشيءا حزينا مظلمًا -  
ولقد شاعده بنفسي في طفولتي ، كان يا ولدي أجمل يسوت  
لوفيسينيه ، تنللا أنواره في الليل ويقصده صفوة القوم وعظمائهم  
في كل وقت ، وتزخر حديقته على الدوام بالأطفال يلعبون  
ويتراجعون ويمرحون !

وهكذا حينما كانت جدتك تتخذ مكانها على ذلك المقعد بجوار  
المدفأة وتجلس ساكنة : كانت تحلم بذلك الماضي البعيد وتنصت في  
لذة واهتمام لأصوات مرح الطعولة البريء الذي تخيله بملا  
أسماعها . ولم يحاول أي أن يوقظها من أحلامها أو يملأها لصال  
الحقيقة والواقع ، مكتفيا بأن يرعاها ويهتم بتمريضها والعناية بها  
حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة في هدوء وطمأنينة .

ومنذ هامين ، وكان مسيو لاج الساكن في البيت المقابل لنا  
قد توفي وهو في المئاش منذ وقت طويل ، واستأجر البيت  
هرومان حديثا الزواج ، تساجر معهما أبي بسيم ارتفاع صوت  
مدياعهما ، وكانا يتركان النوافذ مفتوحة على مصارعهما .

وكم كان أبي يتعذب حينما يأتي بمضى أطفال الجيرة للمباكرة  
في الفضاء أمام منزلنا ، فكلما صاح أحدهم - والله يعلم أنهم كانوا  
دائما يصرخون مثلما كنت تفعل أنت أيام الاحاد - ترتعد أمي وتتنفص  
ألزما كما لو لدغها عقرب ! حتى يضطر الى أن يخرج فيتحدث مع  
أكبرهم . ولست اعلم - على وجه اليقين - كيف دار الحديث بين  
الطفل والنشيخ ؟ بيد أنني اعتقد أن الأطفال جميعا كرهوا أبي وامي من

تلك اللحظة ، ولم يهتموا قط أن الشيخين يشدان الهدوء وهما يقضيان الأيام الأخيرة من حياتهما ، كذلك لم يخطر ببال تلك العروس التي كانت تخطر دواها في الشرقات بثوبها القرمزي الحريري معجبة بشبابها وجمالها أنها ستكون في أحد الأيام مثل جدتك !

وكثيرا ما كان الأطفال يزحفون كالهنود الحمر ويجذبون الجرس في عتف ثم يولون الأدبار ضاحكين مسرورين أو غامسون القاذورات والأوساخ في صندوق البريد المعلق على الباب !  
فهل تشعر بأن وجوده أصبح غير مرغوب فيه بين أبناء هذا الجيل ، وإن كل ما يحدث له ليس إلا إشارة تنبه بأن حياته قد آذت بالنهاية ؟ .

وقبل أن يشل المرض تفكير أمي ويقمدها من الحركة كان يقوم ببعض الأعمال القضائية في مكتبه الذي لا يبعد كثيرا عن محطة « لوفيسنيه » فقد كان يحمل الدكتوراه في القانون ويوجد سعادة كبيرة في العمل والسهر على القضايا برغم بلوغه تلك السن الكبيرة ويتردد كل مساء على مقهى كولوني . وهو مشرب من الطراز القديم له موائد ومعارش ومرابا على الجفون على النمط الأمريكي . وهناك يجلس مع بعض رفاقه من الشيوخ ويلعب دورا أو دورين من « البريدج » فإذا امتد شوط اللعب قليلا بدأ ينظر في فلق إلى ساعة الحائط ، كان يعد الوقت بالتوائى حتى لا يتخلف أبدا عن العودة في الساعة تماما مهما كانت الظروف ، ففي تلك اللحظة تنصرف مدام برين إلى بيتها بعد أن تمد المائدة وتضع الطعام في الفرن ليظل ساخنا .

وكان هو الذي يقدم الطعام ، ثم يشل الصحن أيضا ، وتبقى له بعد ذلك ساعة ليقرأ فيها الصحف .

هل تشعر بالسأم حينما أحذك بكل ذلك ؟ فالأولاد في سنك يتلهفون على كل ما كان جميلا نظيفا صافيا في عمر الربيع ، ويمتعون من كل قديم تقادم عليه الزمن وأكل الدهر عليه وشربة يل ربما نعموا زوال ذلك القدي من أمام أعينهم .

ولكن لا تنس أن ذلك الشيخ المتهاك لم يكن غير جدك ، بجري

جماءه في هروك وفبرق بعض سلامه وصقانه في محبك ، أينما  
أم رضيت !

ولا تحسبني أقول ذلك مدافعا عن أبي ، أو لآخف من مساويء  
الشيخوخة التي تهددني أنا أيضا مما قريب ، فليسوف ازداد عمقا  
في الفهم حينما أصل في قصتي الى ما حدث في سنة ١٩٢٨ التي  
هي أصل كل بلاء ، ومبب كل شؤء سمعته في ( لوفيسينيه ) أو  
في بيتنا في ميدان ماكماهون .

ومنذ خمسة أعوام - حينما ازدادت حالة أمي سوءا - كف  
أبي عن الذهاب الى مكتب الحمامة ، كذلك توقف عن السهر في  
مقهى كولوني ، واكتفى بأن يقيم ساعة أو بعض الساعات لشراء  
الحاجات من السوق ، ومثلها بعد الغروب يتمنى على قدميه حتى  
لا يمرض أو تتيبس مفاصله اذا كف عن الرياضة .

وظل كذلك . حتى بعد وفاة أمي . لم يثر من عاداته قط ،  
ولم يمرض قط ، بل لم يشعر طيلة حياته بحاجة الى زيارة اي  
طبيب ، كان دائما مرفوع الرأس نشيط الحركة مشغود القامة  
كأبى العشرين ، يعنى بشيابه واناقله كأنه عريس ليلة الزفاف !  
وحينما سألت الطبيب في ( لوفيسينيه ) عن مسبب وقاه  
- فقد وجدناه ذات مساء بمفرده منبطحا على وجهه فوق  
المسجدة بجانب فراشه حيث سقط - هز الطبيب كتفيه ونظر الى  
ملبأثم قال : قتله الحزن !

وكان من عادته ان يدفن الأحزان في قلبه فلا تظهر على وجهه ،  
ولم تدمع عيناه حينما ودع شريكة حياته ، ولكنه أمسى أكثر رقة  
واشد مطلقا .

ومما عجبنا له أنه لبثى هريرة صغيرة عثر عليها ضالة في  
الحديقة ذات صباح تموء جوعا وترعد برذا فحملها في رفق  
واشترى لها « بزازة » صغيرة ملاها لبنا ومضى يرعشها ويضمها  
الى صدره في حب وحنان حتى اشتد مودها ، وكانت هذه القطة  
تسليته الوحيدة حتى تضي نحيبه ! .

بيد ان ذلك كله ربما لا يفسر سبب كراهيتي لعمك فاشيه أو  
عدم رضاي عن عمك أوليت التي كانت تنتهج سياسة عدم

الأنبياء إلا أنها كانت تؤيد زوجها في معارضة أجراء القوس الدينية لأبي .

أو ربما كان الفضل لزهرة الجرائيم من اتخاذ ذلك القرار المفاجيء نحو أبي ! أنك لتعرف تلك الزهرة الرائعة التى طالما تناولناها بالحديث ونحن على مائدة الطعام ، والتي كانت تبدو وحيدة فريدة فى أصيصها الصغير الجميل فى النافذة المواجهة لنا فى ميدان ماكماهون ، وكانت لعائن عجوز استأجرت الفرفة الخشبية العليا فوق السطح ، ومع ان جميع سكان الطوابق الأخرى من الأثرياء ذوى الأسماء المعروفة ، لم تكن تعرف من هى ؟ أو من أين أنت ؟ أو كيف تعيش سوى ما أخبرتنا به خادمتنا «أميلى» ذات يوم من أنها تسمى الأنسة أوغسطين .

ولعل مما استرعى أنظارنا الى تلك الزهرة ، أنها كانت تطل وحدها على الميدان ، فتوافد الطوابق والدور جميعها خالية من الزهور ، وكانت تظل فى مكانها أيام الصيف ليلا ونهارا ، ولكن ما تكاد ليالى الشتاء الباردة تبشر بالقدوم حتى تخاف عليها الصقيع وترفعها قبيل الغروب ، ثم تعود فتضفيها فى شمس الصباح الدافئة ، وكنا نقول : انظروا ! هذه زهرة الأنسة أوغسطين قد عادت الى النافذة !

ومن تلك اللحظة شعرت بأن نمة رابطة خفية بين زهرة أوغسطين وزهرة أبى .

فكل مخلوق منا يشعر فى وقت ما بحاجة الماسة الشديدة الى شئ يتشبث به فى شيخوخته ويؤنس وحدته ولقد اخذت يدي فى الدين ملاذا يؤنس وحدتها فى آخر أيامها حتى القبر . ولا اخفى عنك اننى ليلة الصلاة على الجثمان فى الكنيسة اقد سحرت بما شاهدته عيناي بين الظلال : المنبر والمحواجز الخشبية الالامعة ، واخضواء الشموع ورائحة البخور المعطر وثياب المنشدین ، وصوت الترتيل الذى كان يتردد صده تحت القباب البالية المرتفعة المزينة بالنقوش مختلطة بنقوش الأرغن ودقات الدفوف التحامية ، حتى التماثيل التى تصور القديسين تبعث فى نفسى الحائرة راحة لم أشعر بمنحها من قبل .

وشينا فسينا اختلط كل شئ فى رأسى : الزهرة وزهرة

الجريثوم ؟ وصوت الأرغن ورائحة البخور والثرابيل ، ومنظر  
القوس الهيب ، يعبأته الكهنوتية ، وهو يشمر أصابعه من الماء  
القدس .

واختلست نظرة الى ابي في تلك اللحظة فوجدته مطرقا برامه  
في خشوع ، وكأنه يريد أن يخفى عن الناس دعة وحيدة لترقرقا  
في مقلته ، أو ربما خيل الى ذلك !

### الفصل الثاني

قرأت ذات يوم عبارة في كتاب ما ، راقنتي وثقلت  
الى قلبي ، ولست اذكر تماما : هل كان ذلك في قصة قصيرة  
أو رواية كبيرة ، برغم أنني لست مولما بقراءة الكثير من  
ذلك النوع من الأدب ؟ وكانت بقدر ما تمهيا ذاكري ، لأن  
أهم لحظة في حياة الإنسان هي التي يموت فيها أبوه ! .

واستطيع أن أراهم من يشاء بأي شيء دون أن أكون مجازلا  
على أن هذا الكاتب رجل في مثل سني أو أكبر قليلا ، فالناس  
المتقاربون في الأعمار يعرف بعضهم بعضا من أفكارهم المشتركة ،  
ولا أخفى عنك أنني تدبرت طويلا فيما تعنيه تلك العبارة حتى وضع  
لي بجلاء : لماذا كانت وفاة رب الأسرة حدثا جليلا بالنسبة لحياة  
الابن ؟ ذلك لأنه يجد نفسه وقد اضحى بين عشية وضحاها رجلا  
بمعنى الكلمة يتحمل كل تبعات الحياة ومسئوليته ! .



من لحظات وجيزة ، رايت الدهشة بادية عليك حينما دخلت  
مقرني ووجدتني جالسا الى مكتبي أسطر هذه الكلمات وأنا في  
لوب المساء ، فقد سمعت قدماك بالباب وانت تلقي نظره خاطفة  
الى ما أمامي من الأوراق .

— أوه ! . معلومة لم أعرف أنك تعمل .

وقد أجبتك :

— لا ، لست متغولا .

— إنما كنت أبحث عن علة سجاتر .

وكنت أعلم أنك تستضيف صديقا في غرفتك ؟ فقد رأيت

حينما دخلت عليك فرفنتك منذ ساعة ، فنى أسمر مليح الوجه كش  
التصحر له هينان سوداوان جميلتان ، وكان يجلس بجوارك وبين  
يديه كراسة ، وما كاد يرانى حتى وثب واقفا فى احترام ، وقدمته  
الى قائلا : صديقى جورج ذابو .  
ولقد سألته :

— افنى « اليسيه كلرنو » ايضا ؟

فاجابنى فى صوت موسيقى :

— ائنى انهيا لدخول امتحان البكالوريا مثل ابنك .

ثم اردف باسمي :

— وان لم اكن لسوء الحظ فى ذكائه والمعيته !

وما كنت قد سمعت بعد ان رفاك بقدون فيك ذكائك ، وربما  
لكانوا على حق ، فقد بلغنى ان اسالتك يرون فيك معالم النيسوخ  
والرغبة الجادة فى الدرس والتحصيل ، ومع كل ذلك فانى — وانا  
ابوك — لا اعرف الكثير منك !

وحتى اصداؤك لا اطم عنهم شيئا ، ماعدا النادر جدا ممن  
افاجئه لديك من قبيل المصادفت مثل جورج ذابو ، وكنت المسح  
معالم اللهمة على وجهك والرغبة الشديدة فى اتصافى وعدم اطالة  
مكوثى معكما .

واستطرد ذابو يقول فى ادب جم حين رأتى ارتدى ثوب  
العشاء :

— معلرة لحضورى فى هذا الموعد غير المناسب ، كنت أبحث  
عن ورقة فيها بعض تمارين الجبر وانا فى سبيل مراجعة هذه المادة  
لنى بيتنا فلم اجدتها ولما كان صديقى جان بول اقرب زملائى اليناء .  
— اتسكن قريبا منا !

وانت ابشامته وهو يجيب :

— بل فى المنزل الملاصق لكم تماما .

وشعرت كأنما لمة ما يربطنى بهذا الفتى ، ليس اسمه كحسب  
ولا محباه الرسم الذى كان يذكرنى بشئ جميل حبيب الى نفسى  
وانما هو احساس غريب خاضرنى بانى اعرفه منذ وقت طويل .  
وحتى لا اسبب لك مزيفا من الضيق اتصرفت وانا اقول !  
— استمرا فى دروسكما .

ثم عدلت الى غرفة الجلوس حيث كانت أمك تعد كؤوس  
الشراب للضيوف ، ولم يكن من عادتك ان يحضر سهراتنا ،  
ولكنك كنت تحضرها كلرها بناء على اصرار أمك ، فتمكث بيننا  
دقيقة او دقيقتين ثم تفر هاربا الى المطبخ ، وعندما اردت ان  
أهديك سترة للعشاء بمناسبة عيد ميلادك السادس مشرت قلت لك :  
- لا بد للانسان ان يتمرد حضور العشاء بسترة خاصة وهو  
فى السادسة عشرة ، والا فلي يعرف كيف يرتديها اذا تقدم به  
العمر !

واجبتنى بأنه ما زال فى الوقت متسع وانك لا تميل الى  
تقييد نفسك بمثل تلك الشكليات ، وكان الحق معك يا ولدى ،  
فانا نفسى لا افعل ذلك الا مضطرا ، ولست أحب تلك السهرات  
التي ادمنت أمك عليها ، فهى اذا لم تقض المساء فى السينما  
دعت لدارنا بعض مشاهير القوم مهما كان سبب شهرتهم !

وكان قد حضر لزيارتنا هذا المساء - آل ترمبلى - وميلود  
ويتر هوجان اللذان كانا بدعواننا بأسمائنا المجردة على الطريقة  
الامريكية ، وكذا النائب لانير الذى يعتبر البيت بيته ، وزوجته  
وابنته ميريل .

وحينما رأتنى أمك سألتنى - من اجل ميريل بلا شك -

- هل بول هناك ؟

- معه صديق يستذكران دروسهما معا ، ولقد تركتهما

لتوى غارفين لاذنهما فى الجبر !

ويبائريس لانير من امز صديقات والدتك وخاصة بعد ان  
امسى زوجها المحامى لانير عضوا فى البرلمان عقب الانتخابات  
الاخيرة ، وكان واضحا لكل ذى عين ان ميريل تنصب شيكها  
حوالك ، وانت عنها خافل !

وحنى اجعلهم يتركوك وشأنك لودفت !

- لم اكن اعلم ان له صديقا يقيم فى البيت الملاصق لنا ،

بل وفى عامه الدراسى نفسه ! لقد رأيت توجده فى مملها  
يجميلا اسمه جورج زاير .

ورأيت النائب يتبادل نظرة ذات معنى هو وزوجته التي  
قالت تسأل والدتك :  
- اصرفينه يا اليس ؟ .

- لم اسمع به من قبل ، ولا اعلم هل بنات اليوم يظن ذلك  
ايضا ؟ ولكن جان بول لم يحلنى قط من اصدقائه أو حياته  
الخاصة .

- أنت تعرفين امه على اية حال «وذكرت اسم احدى ممثلات  
باريس المشهورات » .

وحينما حضرت الى غرفتي تسأل من صندوق السجائر  
سألتك بلا اكتراث :

- اصراف من تكون امه ؟ .

فأجبته ببساطة : نعم ، طبعاً .

ولكنك لا تعرف اى حياة ملوذة بالتناقضات يعيشها  
صديقك ؟ .

فالملايين من الناس فى كل أرجاء الدنيا يعرفون امه ويمجبون  
برشاقة فوامها وملاحة وجهها ، كما يمجبون بفنها الرائع . وانا  
نفسى - حين كنت اصادفها فى طريقى بالشانزليزيه ، تنهذى  
كالغزال وعلى كتفها معطف من العراء الثمين زائداً فتنة وجلالاً  
والناس يتابعونها بانتظارهم ، والشباب والفتيات من طلبة المدارس  
يتدافعون سحوا ملتصقين أن توقع لهم يامضاتها على كراياتهم -  
لا اخفى عليك انى كنت اشعر بعنفى تلتوى للخلف بالرغم عنى لأشيع  
عيني من النظر الى وقارها وحسن هندامها .

ترى .. هل يكون اى انسان سعيداً بمثل هذه الأم ؟ .

واذا كانت حياة الناس ملكاً لهم وحدهم ، يعيشون كما  
يخطو لهم ، فلن حياة اهل الفن ملك لجماعهم العشاق وملايين  
المجبيين يتعطفون لهم اتوفهم فى كل صغيرة وكبيرة فى شئونهم  
الخاصة ، فالتناس كلهم يعلمون انها لم تتزوج زوجاً شريعياً الا  
مثلاً اثنى عشر عاماً فقط ، وكان صديقك جورج فى الخامسة من  
عنى حياته ، ومع ذلك لم يستمر زواجها أكثر من عام .



وذايو نفسه الذى ما يزال على قيد الحياة ، لا يستقر فى بلد واحد ، فهو بالأمن فى اليونان واليوم فى بناما ونها فى الولايات المتحدة يباشر أعماله الكبيرة فى كل تلك الجهات ، وهو أيضا ممن يشكر اليهم بالبيان لحياته العامة والخاصة مثل اهتمام الجماهير والصحف .

وهو لا يرى ابنه إلا مرة واحدة كل عام ، فى مدينة فيتى التى اعتاد أن يمضى فيها شهرا للاستشفاء فيمضى ابنه تلك الفترة معه .

ولست اعلم : هل يداوم على الاتصال بولده فى غير ذلك مستفرا عن شاعيه وتقدمه فى دروسه ومشاركته فى مشاكله كما يفعل الآباء نحو ابنائهم ، أو يكتفى الابن بمناخمة ما تنشره الجرائد والمجلات المصورة عن تنقلات أبيه على ظهر بخوته الفخمة وسياراته الفاخرة وخيوله التى تجرى فى ميادين السباق أو مقامراته الفرامية مع النساء من كل لون وجنس ؟

وظل ضيوقنا يتجددون ولعلم ما زالوا يتناولون أسرة زاىو بالتجريح والتشريح .

وفى البداية سمعت زوجة الدكتور تومبلى لتستمرى نظر السيدة لانير ، بان ابنتها الثمينة الصغيرة تنصت الى ذلك الحديث ، ولكن السيدة لانير قالت :

— لا أرى بأسا من أن نتحدث فى وجود ميريل ، وقد يكون لديها ما تضيفه الى معلوماتنا .

وعندئذ .. انسحبت لانفرد بنفسى .

لم أكن اعادى مخلوقا وخاصة ضيوقنا .. أو اكراه رؤيتهم . بيد انى كنت اشعر بان لا مكان لى بينهم ، فأتركهم لشأنهم وأتطلق الى مكتبى .

\*\*\*

وحين كنت فى الثامنة من عمرك لأبد أن أحد زملائك فى المدرسة قد سألك يوما ما :

— ما حرفة أبوك ؟

فنحن — وإن لم تكن واسمى التراء — نطم جميع أصدفائك

التلاميذ والباعة وسكان الحي جميعاً الذين يعرفوننا ، أننا في  
صحة من العيش .

فتحت نسين في اجمل احياء باريس وأهملنا على قيد امتار من  
قوس النصر ، وفي مواجهتنا يقيم رئيس الوزارة كما يجاورنا كبار  
الساسة ورجال الفكر والمال والسفراء .

ولداونا - شأن جميع الدور في ميدان ماكماهون - بوابة  
ضخمة من السنديان اللامع عليها مقابض نحاسية رائعة ، ومدخل  
متسع تغطيه السجاجيد الحمراء التي تمتد فوق درجاته الرخامية ،  
وغرف جميلة مشمسة فيحة الأرجاء .

وعندنا الوصيفة أميلي التي لم تفارقنا منذ خسة اعوام ،  
ثم الطباخة المعجوزة زوجة الرجل الذي يعمل في الحرس الجمهوري .  
ثم لدينا سيارة لاباس بها شكلا وموضوعا ، وإن لم تصاه في  
دوعتها مئات السيارات التي تقف في منحى الميدان القريب  
من بيتنا .

وأخيرا ، وليس آخرها فإن والدك تضع فوق كتفها فراء لمينا  
وساوي وحده ثروة طائلة ، بالإضافة الى ذلك المعطف الجميل  
الذي اشترينته لها أيام زواجنا المبكر .

وكنت أنسى ان اذكرك بأننا نذهب كل صيف الى ساحل  
الاركانسون ، اما في الشتاء فننقضي اعياد رأس السنة في ملهى  
كبير . ثم نذهب للتزحلق فوق جليد سويسرا .

ولا ريب في ان جميع أقرانك في الليسيه كانوا من أبناء  
الدوات وفي مستواك نفسه تقريبا ، فليس ثمة ما نخشاه من  
أسئلتهم الفضولية كما كان يحدث لك وانت في المدرسة الابتدائية .  
وأكاد أقسم ان احدا من أصدقائك الصغار قد سالك « ماحرفة  
أيك » ، وانك قد ترددت كثيرا قبل ان تسألني :

« من اين تحصل على المال يا ابني ؟ »

فلقد اعتلت ان ترائي أخرج في الصباح حاملا حقيبة أوراق  
لم أعود في الظهيرة للفداء ، وفي المساء اعتكف في مكتبي وأتناول  
مشائي وحيدا ، وإذا ما أحدثت جلبة أو رفعت صوتك وضعت

امك سبابتها على شفتيها وتقول لك :

— اش ! لاتزعج اباك ، انه يعمل !

واذا ما بدا على ضيق او افلتت منى اعصابى فى اثناء الطعام  
تقول امك معتبرة :

— ابوك مرهق قليلا .

واذكر انى اجبتك وقت ذاك باسمي بقولى :

— احصل على المال كائى انسان بالعمل .

— وما عملك ؟

— اتاخبر فى شركة التأمين .

ورابتك تقطب جيبك الصغير فى جرة ، لانتك لم تشف  
فضولك . فمن بين اقراذك ابناء لأطباء او قضاة او محامين . ومنهم  
من هم اولاد اناس مغرطى القنى لايعلون ، ومنهم من هم اقل ثراء  
او ربما فقراء عاملون فى المناجر او المصانع ، ولكن ليس بينهم من  
يعمل ابوه خبيرا فى شركة تأمين .

— وهل لك مكتب تعمل فيه ؟ وهل هو مكتب كبير ؟

وكان الوقت صيفا . والنافذتان الكبيرتان مفتوحتان على  
مصاريعهما وزهرة الانسة اوغسطين تبدو فى اثم روثها وبهائها  
فى الاصير الجميل على حرف نافذتها ، وكنت فى احسن حالاتى  
صفاء ، فاسعدنى ان اراك تهتم بى اخيرا ، واجبتك فى رضا ومرور  
— ان مكتبى فى اعظم المباني فى بلورس واضخمها بشوارع  
لايت ، شارع الذهب والمال حيث تتداول الأبدى بلايين الفرنكات  
كل صباح ، وليس بفرنسا كلها شارع مثله ، وتملكه اكبر شركة  
لأمين فى العالم .

ولق باني لم اقبل ذلك غرورا ، ولكنها الحقيقة التى قد  
تعرفها الآن بعد ان تجاوزت السادسة عشرة ومع ذلك فقد عدت  
قساننى :

— اتجسس خلف نافذة الصرافة ؟

— كلا .

— اكتب طوال اليوم وتحل تمرين الحساب ؟

— تقريبا ، اتنى أحسب احتمالات الحياة والاختلال .  
وعندئذ فترك أمك فقالت : عسى عليك أن تفهم ذلك الآن .  
استمر في مشاكلك .

فاجبتها غاضبا : حسنا ، اتنى مستمرا .  
ولم اكتف بذلك فقد أردت أن أشيع فضولك ، واخذتك معي  
مساء الأربعاء الى شارع لافيت ، ولاحظت عليك معالم الدهشة  
والرهبة وانت تدلف من بين الباب البرونزى الكبير الى الردهة  
العريضة الطويلة ذات الرخام الأسود اللامع ، وسألتنى مشيرا  
للحارسين ذوى الثياب الرسمية والزواجر الذهبية وهما يؤديان  
لى النحية :

— هل هما شرطيان ؟

— كلا ، بل هما حارسان .

— ولماذا يحملان مسدسين فى جرابيهما ؟

— وحينما حياى كبير الخدم بالباب قلت :

— لماذا يعلق سلسلة فضية حول عنقه ؟

كانت تلك الفترة الوجيزة التى قضيتها معي وقتلت من أجمل  
لحظات حياتى ، ولا نسل من سعادتى وأنا أترك المصعد الكهربى  
الذى يسع مشرين شخصا ، والمعايش الطويلة المكسوة بالسجاد  
السميك ، وعشرات الغرف ذات الأبواب المصنوعة من الخشب  
الثمين اللامع وعلى كل منها رقمها النحاسى ، كذلك شعرت  
بالسرور وأنا أصعد بك الطابق الثالث من مؤسستنا الضخمة التى  
تعمل كأنها خلية النحل ، الى حيث غرفتى الخاصة وعلى بابها  
لافتة « ممنوع الدخول » فسألتنى فى دهشة :

— لماذا لا يسمحون للناس بالدخول ؟

— عمل الخبير الحساى لا يتصل بالجمهور ، ولا ينبغي إزعاجه .

— وما السبب ؟

— ذلك لأن عمله ذهنى شاق يحتاج للهوى ، وايضا فى غاية

السرية .

وبدت عليك امارات الريح حينما دخلت فمرقتى الواسعة  
للأيقنة ورايت مكتبى العريض وطيفوناته الثلاثة ويجواره الخزائن

الحديدية الضخمة ، والآلة الالكترونية الحاسبة ، لم تترك  
المساعدين المحاسبين ويجوارها غرفة الكتبة الذين يعملون تحت  
أمرى ، والأرفف التى تغطي جدرانها حتى السقف والحسافة  
بالمجلدات والمفاتح .

ولم تات بعد ذلك تزيانى الا مرتين او ثلاث مرات فى مروج  
العابر . اما لتحمل لى رسالة من والدتك ، او لاتنا نواعدنا على  
اللقاء ، وكان آخرها منذ شهرين لاغير حين جئت فى السلاسة  
صدا لرافتك الى الحائك الذى يخيط لك ثيابك .

ومنذ ذلك اليوم لم تسألنى عن طبيعة عملى ، ولملك تكون قد  
وجدت وقت ذاك الإجابة التى اقنعتك ، او ربما تلقيت بين دروسك  
فى ( اليسيه ) عمل الخير الاكثوارى فى شركات التأمين .

وعلى أية حال ، فما أشك ان ابن الثالثة قد كون فى راسه  
صورة عن ابيه ، فانا أشغل مكثا وسطا بين درجات السلم الاجتماعى  
لرفع شأننا من أولئك الموظفين الذين رأيتهم يعملون فى مكاتبهم  
بالطابق السفلى ، وأدنى قدرا من أولئك المديرين الذين يجلسون  
فى مقاعد وثيرة تدور حول نفسها ويمبثون بسلاسل معالهم  
اللعبية بين أصابعهم المزيئة بالخواتم ذات الفصوص الضخمة ،  
ولهم غرف خاصة لاستقبال الزائرين وجلسهم حتى يسمح لهم  
بالمثول بواسطة الحجاب على الأبواب .

وباختصار آت لم تملئ بى زهوا وافتخارا ، كذلك لحسن  
الحظ لم تصلم فى أهلك مما بجعلك تحنى رأسك بين أقوائك  
ذلا وعارا .

وربما تخيلتنى فى رأسك الصغير رجلا معدوم الواهب والرغبة  
فى المجد والطموح ، يهرب من المسئوليات والمخاضات ، فهل لى ان  
أسالك بدورى ؟ ماذا تمنى ان تكون بعد عشرة أو عشرين عاما  
للأمام ؟

انا لم أحاول ان أسالك قط ، لعلمى ان الإجابة -- ومن طفل  
على سنك -- لن تكون سهلة او بيسرة المثال ، وأمامك المستقبل  
مثل عال عريض حافلا بالأحداث والمفاجآت على الرغم من أنه كثيرا

هاوجه اليك ضيوفنا ذلك السؤال ، والناس مقرمون بتوجيهه دائما  
لأطفال أصدقائهم على سبيل المداخلة : ماذا يجب أن تكون عندما  
تكبر يا بنى !

ويبدو الغضب على وجه أمك حينما تسمعك تقول : لست  
أدري !

فتقول لضيوفها معتذرة : - يحيل الى أن جميع أطفال هذا  
الجيل على هذا الطراز ، لا يطمون ولا يبالون ! ولا يحددون هدفا  
معينا للمستقبل كل ما يهتمون به في هذه الأيام هو الحسرة الى  
المدرسة ، ثم الذهاب الى السينما .

وكنت المحك تطرق براسك حجلا ، فأولئك لك ، فهل تراك قد  
أحسنت وقتل بل قلبى معك ، واني لا أومن بنانا بما يتقده  
بعض الناس من أن الدنيا تشهد أجيالا أسوأ من سابقها .  
أما أنا حينما كنت في مثل عمرك وبقايتى أحدهم بذلك  
السؤال السخيف - فاني كنت أجيبه على الفور

- سأدرس القانون ، لا لرفعة حقيقية في نفسى - بل حلمي أن  
تلك الإجابة تسعد أبى ، فقد كنت أرتجف فرحا من مجرد التفكير  
في ارتداء « روب » المحاماة مواجهها الجمهور والخصوم والقضاة ؟  
أو في أى عمل له احتكاك مباشر بالناس ، وكان حلمي الأكبر هو أن  
أقدم أسنذا في العلوم أنزوى في معملى الخاصر أخرى فيه  
مأشاء من الأبحاث بمبدأ من العيون والانظار !

ثم انتهى بى المطاف لأتولى منصب المحاسب الإكتدارى في  
أهم شركات التأمين بفرنسا .

وصدقتى - ولا أقول ذلك زهوا أو غرورا ، انتز أؤدى من  
خلف ذلك الباب اللامع المطلق الملققة عليه لافتة « متروء للدخول »  
عملا بالغ الأهمية شديد الحساسية في عالم المال والاقتصاد ؟  
لست حقا ممن يجرى الذهب بين أصابعهم ، أو ممن ترمقهم العيون  
في تلك المكاتب الواسعة ذات التماثيل الرخامية الرائعة والآنث  
الفاخر ومع ذلك فانا الجندى المجهول الذى يحمل على كاهله أثقل  
الأعباء !

ومستعشى حين أقول لك : أتى قد حققت أيضا حلمي الكبير  
« استاذ العلوم الذي يجرى الأبحاث الخطيرة في معزل عن الناس »  
فانتى داخل مكتبي أبحث علميا وبحث مجهو مكبر طبيعة الكوارث  
بكل أنواعها برا وبحرا وجوا ، سواء أكانت عن وفاة أو حريق أو  
غرق أو حوادث سفن وطائرات ، أو مخاطر طبيعية واقتصادية  
وجنائية ، ريحا أو خسوف .

ومن أجل هذا ، رأيت في مكتبي تلك الآلة الالكترونية الحاسبة  
التي أشرت فضولك .

ومعلومة ان كنت أبحث في نفسك المثل وأنا أذكر لك ذلك .  
ولكني أريد ان أثير في نفسك الشعور بالاهتمام بميل إبيك ،  
فهل تصدق مثلا ان كل كئيب جديد في دينا الطب والدواء يقلب  
تقديرنا كلها راسا على عقب ، وان أى تغيير في رغبات الناس  
أو ما اعتادوه من طعام أو ثياب أو كساء يقلل أو يضاعف الحد  
الأدنى الذي ينبغي ان يدعمه المؤمن عليه ، ولن أقل خلاف في  
تقدير سرعة الرياح أو شدة الأمواج أو مدى ما تعرض له البلاد  
من ولاء مثل الانفولنزا أو الكوليرا ، تحملنا خسائر تزيد عن بلايين  
البلايين من العريكات ، بالإضافة الى تلك الزيادة المطردة في  
السيارات التي تجرى على الطرق البرية بسرعة البرق . والآلات  
الكهربية التي لا يغلو منها بسبب تقدم الحضارة أى مصنع أو  
مكتب أو بيت ويستخدمها الناس في كل شيء ، وما سببه كل  
ذلك من كوارث في الأرواح والأموال !

وهكذا ترى ان جميع أولئك البشر الذين نطلقون أمامك في  
شوارع باريس ومواسم البلاد الأخرى يدخلون الآلات ذات الفعل  
الالكترونى ، ويخرجون منها أرقاما ورموزا وعلى أساس تقديرنا  
تعمل هذه المؤسسة الضخمة من أول ذلك الساعى الصغير حتى  
مديرها الكبير !

والكاد اشعر بتفنى . وقد غدت مجموعة من الرموز والأرقام  
حتى أولئك الضيوف الذين تركتهم توا مع والدتك أوابى فقدت  
الاهتمام بهم كمخلوقات من دم ولحم ، مما يفسر لك غرامى في

## الاعتكاف وحديث \*

ومنذ سنوات وأنا أرقبك خفية لأرى : هل تحب أمك أكثر مني ، أقصد : هل هي أقرب إلى قلبك مني ؟ وهل تحقق في خيالك الصورة التي يتماها كل ابن لأمه ؟  
إنها - وإن كانت صلوحة حازمة في معاملتها لك ، كما هي معي أحيانا - لا ينقص ذلك من حقيقة حبها لك ، وهو حب يختلف كما وكيفما عما تشعر به هي نحوي -

وأكاد المس من طريفتها أنها تريد أن تخلق منك رجلا مثاليا ، تحدت صورته في أحلامها ، وأنها في سبيل ذلك قد تشتت في قسوتها كلما بدر منك ما يكره صفو تلك الصورة الجميلة التي تحب أن تقدمها في طبق من الذهب لن اختارها لك شريكة العمر «ميريل» حتى تليق بمصاهرة وزير المستقبل أو ربما أصبح رئيسا للوزارة قريبا أو بعد حين ؟  
أنا لا أبخس والدتك قدرها ، أو أحاول أن أحط من شأنها أمام عينيك .

ولعلك قد أدركت بما أويت من ذكاء وفطنة أنني وأمك لسنا بالزوجين المثاليين بما تحويه العبارة من معان ، ولا أمني بذلك أن أحدا منا يكره الآخر أو يتمنى فراقه ، فنحن راغبان قائمان بأن تكون صديقين لحسب ، لكل منا قرفته الخاصة ، نشترك في أوقات الطعام ، كما نشترك في الاسم الواحد .

وقلما نشاجر في وجودك ، وفي الحق نحن لا نشاجر أبدا في هذه الأيام ، لأننا لاملتقى إلا نادرا وفي المناسبات .  
ولم يحدث ذلك لحاجة ، بل لتدريجيا وعلى مر الأيام ، وبعد أن تزوجنا بيضة شهر .  
وأنا لا ألومها في ذلك مطلقا ، فالغيب ذنبى بمفردى ، وأنا الذى أسأت لنفسى ولها أيضا .

ولكن مهلا ، فما زال أماننا متع من الوقت حتى نخوض معا ذكريات الماضي .  
وما بدأت قصتي بالحديث عن جندك إلا لأن مراسم دفنه هي



التي أوجت الى بالكتابة اليك ، واهم من ذلك أيضا انه كان اهم شخصية لعبت دورها في مأساة عام ١٩٢٨ ، كذلك كان الضحية الأولى في أسيرة فرنسوا ، وقد شابت الأفقار أن يتلطح اسمه وهو في أوج مجده بالخطبة والمعر .

وعندما تزوجت والدتك في ١٩٣٦ لم يكن أحد منا تنقصه الخبرة أو التجربة ، بل كان كلانا عاقلا رشيدا حنكته الأيام ، في الواحد والثلاثين من عمره ، ولكل منا ماضيه .

ولم تحاول إخفاء شيء من ماضيها عني ، كذلك أنا اعترفت لها في صراحة وصديق بكل ماوقع في لاروشيل عام ١٩٢٨ .  
ولقي بأن ما مستغرقه في السطور القادمة من والدتك سوف يضاعف من حبك لها ، أما أنا فليست أدري يا ولدي : هل رحمتي أو تلومني بعد ممالي ؟

### \* \* \*

كان ذلك آخر مأسطرة قلمي حتى مساء الجمعة .  
وكنا قد ذهبنا البارحة « السبت » الى المسرح بدونك ، ولم نطلب منك أن ترافقنا ، لكثرة ماكنت ترفض في المرات السابقة مفضلا أن تقضي الوقت مع بعض أصدقائك مما كان يحز في قلبي والدتك قليلا .

واليوم - الأحد - الطقس فارص البرودة على غير عادته في نوفمبر ، الحرارة دون الصفر ، وزهرة الأنثى أوغسطين لم تظهر في نافلتها الا فترة وجيزة جدا في النافذة ، حينما استطاع شعاع هاديء من الشمس أن يشغل متلصصا من بين السحب ليطلع قبة خاطعة على جبين الزهرة ، قبل أن تعود الى احضان صاحبها تلتبس الدفء والحب والحنان .

ومزاج امك - كما تعلم - لا يكون صافيا متدلا ايام الاحاد الخاصة ، لأن صديقاتها لا يلبثن في اماكنهم المعتادة في ذلك اليوم مما يضطرها للحد من برامجها ونشاطها المعروف ، فالبيت يخلو من الخدم ، ومقام جولز الطاهية تختار الأحد من كل اسبوع عطلة لها ، كذلك أميلي - برغم علمنا الأكيد بأنها ليست حريصة على دينها - تتمسك بفتحها التاتومي وتغيب حتى الظهيرة بحجة الذهاب

للصلاة في الكنيسة ، ولا ندرى أين تذهب هذه الفتاة في أم  
 قرنتها وأبى ثيابها ورائحة العطر النفاذ تبعث من شعرها ؟  
 وبدأ مشاكلنا منذ الصباح أن لم تكن في الحقيقة من أمسياتنا  
 السبت حيث تفكر في أفضل الوسائل لقضاء اليوم ، فمن أفضل  
 الأمور على النفس أن تقضيه بين جدران البيت معا ، ثم الحدائق  
 والشوارع مزدحمة لاخرها بالسيارات ، غاصة بالمرة والمتسكمين،  
 أما المسارح ودور السينما فحافلة بالرواد والتلاميذ وعائلات  
 المصانع والتاجر ولا موضع لقدم ، والمحال التجارية مقلقة والمصالح  
 الحكومية معقدة ، ومعظم المعارف والأصدقاء غائبون في مزارعهم  
 البعيدة في الريف للصيد والتنص في مثل هذا الوقت من العام .  
 وقامت والدتك الى التليفون تدبر القرص مرات ومرات ، ولم  
 تجد إلا أسرة ترمبلي .

وكما تعلم . اعتذر ترمبلي عن الحضور ، لأنه الطبيب النوب هذا  
 الأسبوع ، واقترح أن نذهب جميعا الى شفته التي يستعملها سكتا  
 وعيادة لمرضاه في ميدان ( ترنيه ) والتي يمتلئ هواؤها برائحة  
 البسول والكثوروفوم ودعانا أن نغضى السهرة معه وزوجته في لعب  
 الورق .

ولم اشعر هذا الصباح برغبة في نقى للكتابة ، فأمضيت  
 فترة الصباح غارقا في مقعدى الوتر خلف مكتبي سابحا في  
 افكاري .

وفي أثناء تناولنا غداءنا - دق جرس التليفون فأسمعت اليه  
 أمك . وبرغم بعده عنى امتطعت أن اميز فيه صوت عمك فأشبهه ،  
 وقالت أمك له :

- شد ما يؤسفنا أن ذلك مستحيل . سوف نخرج في المساء  
 أنا وآلين لزيارة بعض الأصدقاء ولعب البريدج .  
 وكنا نجلس معا أمام أطباق التهيئات في انتظار والدتك نتصت  
 في صمت .

- آه ! ولكن لا يمكن أن يتم ذلك غدا !

وتحدثت طويلا : وأمك تصغى اليه ،

- حسنا . أجل ، بالطبع ، انتظر لحظة . . . ماخيره .

ووضعت يدها على يوق السماع وقالت :

- هذا « بير » يرغب في مقابلتنا هذا المساء لتقرير ما يلزم بخصوص المزرعة والقصر ، لأنه مضطر للسفر الى لندن يوم الثلاثاء في رحلة يطوف فيها بالجزر البريطانية لالقاء بعض المحاضرات ، وقد تطول رحلته ، وقد اتصل بمحبيه لتحديد موعد الاجتماع غدا ، فأخبرته باننا مرتبطون بزيارة ، ولكنه مصر .

وهزرت كفى استخفافا ، كان مجرد التفكير في ان ينتظر شخص ما اباه ليموت حتى يرث فيه ، يبحث في نفس الاستمراء ، ومن الخير ان تنتهي من ذلك الشيء المكروه سريعا فقلت لها :  
- ما عليك الا ان تتصلى بالسيدة ترميلي وتعتدى لها باننا لن نستطيع الحضور لأسباب عائلية طارئة . .

وأظهرت امك استياءها بنفخة من انهما وقالت :

- هكذا يعمل بير دائما ، يفاجئنا بتحديد مواعيده في آخر لحظة !

ثم رمت يدها عن السماع وقالت تحدث فاشيه :

- بير لا سنشمر بكثير من الحرج امام اصدقائنا الذين يتوقعون حضورنا ، ولكن مادمت مصرا ماذا نقول ؟ انظر لحظة !  
والتفت لسالتي :

- آهنا ام في شارع دي باسي ؟

وكانت امك تفضل لو انتقلنا الى شقة عمك ، فتكون قد خرجت من بينها على اية حال ، ومع ذلك فقد ايجتها في حزم :  
- بل يحضران هنا !

ولا بد انها فهمت قصدي ، ولكنها لم تجرؤ على معارضة :  
فانا وريث أسرة لا فرنسوا ، وما عمك فاشيه الا زوج شقيقتي ، وليس من حقه ان يدمس اتفه ويحتر نفسه فيما لا يعنيه من امورنا ، فلا اقل من ان يحضر هو الي - اذا اراد - وليسوف يضايقه ذلك بلا ريب وقد اعتاد ان تجاب اوامره وتطاع على الفور لجرد انه اديب كبير مشهور ، يلعب نجمه في جميع الاوساط .

واننى لأعلم انك قد تأثرت بشخصيته ، وتمتلىء نفسك زهوا وتنتعج صديرك فخرنا حينما نسمع اسمه يتردد في الصحف او

الاذاعة ، أو حين تجد صديقا لك يقرأ في شقف أحمدى روائع قصصه فتقول : هذا عمى !

ونحن مقتربان فى السن ، ولا يكبرنى بأكثر من أربعة أعوام ، لكنه يبدو أصغر منى سنا ، لأنه دائم الحركة جم النشاط للوجه مذهلة ، لم يترك بابا للشهرة إلا طرفه وامتد نشاطه الفكرى الى الميادين كافة . فى المسرح والسينما والتليفزيون ، كما أنه ينسى لعدة ثقات وتواد فى كل بلد .

حتى زوجته - شقيقتى أرويت - التى كانت فى السنوات الأولى لزوجها تعاونه فى كتابة مقالاته وقصصه على الآلة الكاتبة انتقلت إليها عدوى الحماس والشهرة فبدأت تكتب مقالات فى شتى الموضوعات للمجلات النسائية أولا ، ثم فى جميع وسائل النشر والأعلام حتى ذاع صيتها فى الأحرى ، واحتلت مركزا فى الأدب بضاحية ، وكثيرا ما تراهما معجوبين الى إحدى الحفلات ، كلا على أنفراد ، وبدعوة خاصة باسمه .

هذا هو بير فاشيه - الذى سوف أحدثك عنه فيما بعد ، والذى لم يكن حينما تزوج شقيقتى أرويت إلا كاتبا مقهورا فى قلم المانى والاشغال المدنية ، القسم الخامس من مبنى محافظة شلرنى التى كان أبى حاكمها العام فى عام ١٩٢٨ ، وكان خشن الطباع أصغر الشعر والوجه يحيل القوام ، ولم يتغير فيه شيء بعد ثمانية وعشرين عاما إلا شعره الذى مضى الى غير رجعة ، لكن صلته أكسبته صحة وشبابا حتى أمسى من العمر أن تقلد عمره !

وقالت والدتك : أبدا فى طامكما ، سوف اتصل بال ترمبلى فوراً .

وأما دون أبة اساءة لها تشعر بالأعزاز والعز لانها تصاهر مثل ذلك الرجل العظيم ، وكثيرا ما عبرت لى من أسفها لأن فاشيه لم يزوجنا قط فى الأيام الأخيرة ، والحق يقال ، أنه لم يطمع بيتى منذ سنوات ، بل كان يرسل بين الفينة والأخرى بطاقات دعوات لحضور الحفلات التى سيلقى فيها محاضرات أو تعقد لتكريمه أم ونحن عادت للمائدة كانت متوترة الأعصاب ، فان السهرة التى

أعدتها قد أخفقت بذلك الموعد المفاجيء ، فتمسكت بمسألة  
يا ترى سيكون الضحية التي ستنت في غضبها ، والبيت خال من  
الخدم ؟

وكننت أنت - تلك الضحية يا ولدي ، فلقد نظرت اليك فيجاء  
وهي تطبق فوطتها وقالت لسالك :

- ما الذي ستفعله هذا المساء ؟

واجبتها أنت في شرود : لست أدري !

- أخرج أنت ؟

وبدت عليك الدهشة ، فهي تعلم أنك نادوا ما تمضي أصيبت  
الأحادي في البيت .

- أجل ، أظن ذلك ..

ولا ياس من أن أصالحك بأن لك طريقة في الإجابة كفيلة بأن  
تثير أعصاب الحليم ، ومع ذلك فانا أعلم أنك لا تقصد أن تكون  
خشيا وإنما هي حدة في طبيعتك ، وأنك في أغلب الأحيان تنسى  
ما ينبغي عليك من رقة وأدب في مخاطبة والديك ، وكننت متحفزا  
كالملاكم الذي يثمر من ساعده للدفاع عن نفسه ، ولعلك قد  
الذورك استلثتها التي تمس تحركاتك التي تعتقد أنها تحسك  
وحسك .

وهنت أمك في غضبه :

- هل تظن ذلك ؟ أو أنك واثق من نفسك ؟

- لست أدري يا أمي !

- أذهبي أنت إلى السيتا ؟

- ربما .

- مع من ؟

- لا أعلم !

- ألا تعلم مع من ستخرج بعد قليل ؟

وكننت التمس لك العذر وأقصد موقعك ، لاني مبرور بذلك  
الرحلة في صباي ، كذلك كنت أفهم سبب غضب والدك أيضا ،  
لقد نسيت أنك لم تعد طفلا ، وأن الفتى في عمرك يعقت كل نوع

من الرقابة ، وأنا شخصياً حينما كنت فى مثل سنك كنت أقادى  
ببلى بلا هدف محدود ، وأمضى اغتصب عن أصدقائى فى كل مكان ؛  
فى المقهى ، على أبواب السينما ، أو ربما على ناصية شارع ما ؛  
وعندما نتقابل نتطلق ونلوع الطرقات والميادين ذهاباً وإياباً حتى  
نكل أقدامنا ونشمر بالتعب ، ثم نفترق ، وكنت إذا فشت فى  
العثور على أحد من رفاقى هنا أو هناك أذهب أقرع أبواب دورهم  
حتى أجد ضالتي ، ذلك ما كنت أفعله .

أما أنت فقد غفمت وأنت تنظر فى طبقك ؟

— نعم ، لمست أدري !

— وابن كنت نذهب فى امسيات الاحاد قبل الار ؟

— على حسب الظروف !

— اترفض أن توضح لنا أين وكيف تمضى اوقات فراغك ؟

وكنت المحك نرداد تحمزا وأنت تنكمش حول نفسك رويداً  
ورويداً وكأنك تسأل فى قوقعة نوشك أن تفلحها عليك ، وسمعتك  
تجيب واجماً .

— أما قلت لك على حسب الظروف ؟

واكاد أقسم أن الأمر لا بعدو أمراً من اثنين لا ثالث لهما : أما  
أن للبنات نظاماً خاصاً فى الإ قضاء بكل ما فى قلوبهن لامهاتهن ،  
أو تكون امك قد نسيت أيام طفولتها ، فما رالت مصرة على اقتحام  
تلك القلعة المقلقة التى تحتفظ فيها بأسرارك، وكأنها تجهل أنه مامن  
بشر فى الدنيا — ومن أى طور من أطوار حياته — لا يحتفظ فى  
قاحية من قلبه بأشياء عزيزة على نفسه يكره أن يطلع عليها مخلوق  
مهما كان شأنه !

وبهذه المناسبة : هل تذكر حينما كنت أسماك — وأنت فى  
الخامسة من عمرك — فى بعض اللبالي ، عما فعلته فى المدرسة  
ذلك اليوم ؟ وكانت احبابك لا تختلف عما تجيب به الآن !  
— لا شيء !

— اليس لك اصدقاء صغار يشاركونك فى اللعب مثلاً ؟  
— بلى .

— من هم ؟ —

— لا أعلم ! —

— وما الذى تعلمته فى المدرسة اليوم ؟ —

— أشياء كثيرة . —

فقد كنت — وفى تلك السن الصغيرة — تشعر بحاجتك الى الاحتفاظ بالصندوق المغلق بما يحويه من غموض واسرار ، لئلا تحب ان يفقه انسان ! .

ولكن ذلك لم يرض والدتك ، ألم اقل لك ان اعصابها كانت فى بداية الامر متوترة ؟ .

— اسمع كيف وبأى لهجة يخاطبني ابنك يا آلى ! —

— اجل ، اجل ! —

رباه ! وما الذى كان فى وسعى ان افعله ! .

— كانت تجيز سلوك ابنك الشائن ! فتى فى السادسة عشرة يأبى ان يصالح ابيه بما ينوى ان يفعله ! —

وغمضت تقول محاولا انقاذ الموقف : انصنى لى يا ماما .

ولكن الوقت كان قد فات ، واذا بدأت العاصفة فلا قوة فى الوجود تستطيع ان تحول دون مضيقها للنهابة .

— يجب ان نفهم ان من حقى ، بل ومن واجبى ان اعرف كل شئ عنك مادام ابوك لا يهتم بك او ببالى . —

وامتقع لوتك وانت تالها :

— وهل يتبقى ان أحد منك تصرىحا كلما ذهبت الى السينما . —

— ولم لا ؟ . —

— وفى كل مرة اخرج لاقابل صديقا او . . . —

— بكل تأكيد ! . —

— وهل تعرفين ايا من الاولاد بفعل ذلك ؟ . —

كان كلاكما متساويا فى العناد .

— اتسمى ان يفعل كل الاولاد ذلك وخاصة الملهيون منهم ؟ . —

— اذن كل اصدقائى غير مهذبين ؟ . —

— هذا لائق تسمى اختصارهم ، أما انت فعليك ان تفهم انه طالما انت تعيش معنا تحت سقف واحد يجب ان تكون مثال الطماعة

والأدب والخلق الحسن ، تلك واجبات مقدسة ينبغي أن تؤدبها  
نحونا .

وارتدت شعرك السفلى ، وكان يحدث لك مثل ذلك في  
الماضي وأنت بعد طفل صغير كلما شعرت برغبة شديدة للبكاء ولكن  
كبريائك منعك من أن تلطف الدموع أمامنا ، وحقا قلما رأيناك  
تبكي ، وأذكر أنني ضيقتك ذات يوم - حين كنت في الثالثة من  
عمرك - تحبس نفسك داخل صوان ثيابك وقد انحطت في بكاء  
شديد ، وكدت أغلق الباب عليك بلا قصد ، وعندئذ صرخت في  
وجهي تمنعني بين نحيبك وأثبتك !

- اذهب عني ، أنا أكرهكم جميعا !

ولما جدت ذراعك بالرغم منك انتزعك من مخبئك مضيت  
ترككني تعلّميك الصغيرتين وتعمل انبائك الخضراء في يدي وأنت  
في قمة ثورك وعصبك ! هل تذكر ذلك يا ولدي ؟  
ولكنك لم ترفسي ولم تعض أمك اليوم ، بل ولست واقفا في  
عنق ، ومصيت ترمق أمك في حيرة لا تعرف ماذا تقول ؟ وأخيرا  
قلت متعلما !

- في هذا الحال من الأفضل أن أخرج من هنا فورا !

ولبثت في مكانك برهة ، وكأنك تتوقع أن يلين قلبها لتطلب  
منك البقاء ، لكنها لم تحرك ساكنا إذ قلت المفاجأة لسانها وشلت  
تفكيرها ، وحاولت من جانبي أن أشرح لك مهدئا حتى تحنى رأسك  
الصغير للعاصفة وتنتهي الموقف بالاعتذار لها ، لكنك لم تصبرني  
التفان !

وكل ما استطعت أن تفعله هو أنك غادرت قاعة الطعام ضاربا  
الباب خلفك في عنف ، وانطلقت توسع الخطأ بما يشبه العدو إلى  
طرفة بومك .

وعندئذ زارت والدتك وهي تلهث في عنف :

- هل رأيت ؟

- أجل !

- طاملا حذرته ! وهانئذا قد سمعت بأذنيك نتيجة انراطك في

تخليه !



ولم أجب ، ووقفت اميلي المسكينة حائرة لا تعرف ماذا  
تفعل ! وهل تستمر في تقديم الطعام ؟  
- هاتي الحساء يا اميلي .

ثم حدثتني بانظاورها وقالت :  
- انك لم تنبس حرفا أو توجه اليه لوما مكتفيا باتخاذ موقف  
المتفرج كأنك راض عن مسلكه ، وحقا اكاد اكون واثقة من انك موافق  
على مسلكه !

ولم استطع ان اجيبها مؤيدا لاثامها ، وفي الوقت نفسه لم  
يكن في وسعي ان اكلب فاجيبها نفيا ، قصمت !  
- على الاقل ارجو ان اراك تؤديه على اللهجة المحسنة التي  
سمعتة يخاطبني بها ، ولو كنت مكانك لبدأت عقابه باصدار الأمر  
اليه بعدم تركه البيت اليوم كله !  
فنهضت .

- الى أين ؟

- سأخبره .

- بماذا ؟

- بأنى أمره بعدم مفادرة البيت .

- يحبل الى انك سوف تتلطف في الحديث معه .

- كلا !

- بل ستفعل ذلك ، واقرا ذلك في عينيك !

وانطلقت الى الباب - دون ان أجيب - اما الباقي فتصرفه  
الا اذا كنت قد نسيت ، ومع ذلك ربما نسيت ذلك حين تقرا  
رسائلي بعد بضع سنوات .

وجدتك مستلقيا بكامل ثيابك في مرض الفراش وقد دفنت  
وجهك في الوسادة ، ولكنك لم تكن تبسكي ، ومع انك شعرت  
بقدومي من وقع خطواني لم تحرك ساكنا !

- اتصت الى يا بني .

وحركت رأسك قليلا حتى تبعد فاك عن الوسادة دون ان  
تريني شيئا من وجهك .

- لا أريد حديثا من احد ، لا منك ولا من أي مخلوق !

— ما جئت إلا لأخبرك بأن نلزم البيت لا تفاديه هذا المساء !  
— أعرف ذلك .

وساد الصمت بيننا ، وكنت اسمع تنهداتك العميقة تهز قوائم  
الفراش ، وأنا في دوامة من الحيرة لا أعرف هل من المناسب  
أن أقول لك شيئا قبل أن أخرج ، أو أتركك لحالك ؟ وعندئذ  
سمعتك تقول في صوت متهدج مكتوم :

— اطمئنا ، لن أخرج !

واقسم أنها كانت لحظة صعاء عجيبة ، تجاوزت فيها لرواحنا  
واتصلت قلوبنا في مناجاة روحية صامتة لم تحدث لنا قط من  
قبل . وشمرت كان ضوءا باهرا أقوى من شمس مايو الساطعة  
يملا غرفتك !

وقبل أن أتركك ، ربت على كتفك بأصابع مرتعشة حانية ،  
ثم أغلقت الباب خلفي في هدوء دور أن أنطق حرما .

— ماذا قال لك ؟

— سيظل في الدار .

— أكان يبكي ؟

وما كان يرسمي أن أنطق كلبا ، فهزئت رأسي نقيا .

وحينما دقت الساعة الرابعة . وكنا قد أمضينا وقتا طويلا مع  
عمتك وروجها في غرفة الجلوس ، انتهزت فرصة مرور أمك بي  
فهممت لها : أهلك قد تسيت جان بول ؟

وبدا من نظرتها أنها لم تفهم ، فلما أومأت برأسي تجاه النافذة  
حيث أوشكت الشمس أن تغيب فهمت ما أعنيه فقالت : حسنا ؟  
صاذهب إليه .

وقلت للضيفين اللذين لم ينجا أبناء : مسألة عائلية بسيطة .  
ومضيت أصب لهما مزيدا من الشراب مبالغ في الحفاوة .  
وحين عادت والدتك كانت في حال قطيبة ، وقالت في صوت  
لغقيضي وعلى مسمع من الجميع :

— سيأتي لتحية الضيوف الأعزاء تحية المساء قبل أن يخرج .

وظلت لفترة طويلة تتحاشى النظر في عيني !

واستأنفنا الحديث مرة أخرى بعد خروجك مع فاشيه وعمتك ،

وكان دورى فى النقاش صغيراً ، فقد أحسنت أمك عرض وجهة نظرى والدفاع عن مصالحى بأحسن مما لو كنت فعلت بنفسى . وعمك فاشيه ، لأن دخله يكاد يكون ضعف دخلى ، بالإضافة الى ما تربحه عمك أيضاً من الكتابة والتأليف ، يعيش هو وزوجته فى اسراف وبذخ شديدين ، مع أنه منذ عامين مضى فحسباً ، كانت عمك تتردد على مكتبى تطلب فرضاً يكفى تسديد نفقات البيت حتى أول الشهر .

ولقد فوجئت - يوم وفاة أمى - بفاشيه يسألنى فى لهجة بريئة :

- لا اعتقد أنك تفكر فى الإقامة أبداً فى هذا المكان المكروه ! . ولم استطع ان أجيبه وقت ذاك بغير الحقيقة ، فلقد انقطعت صلتى تقريباً بفيلا ماجالى بعد ان مضى على وقت طويل وأنا أظن بوليس بعيداً عن لوفبشينيه ، والتي فقدت كثيراً من أهميتها بعد ان هجرت العائلات القديمة ذات الأسماء الكبيرة قصورها بين أحضان الريف .

وكان جلدك وقتئذ على قيد الحياة .

ولكى علمت بعد ذلك بفترة وجيزة وبحكم عملى فى شركة التأمين من مصدر ائق فيه ، أنه قد تم اتصال بين فاشيه وبين إحدى المؤسسات التى تقوم بأعمال المقاولات والبناء ، لجس نبضها ومعرفة الثمن الذى نمرضه فى القصر لو توسطت فى عرضه للبيع .

وهو لا يعلم أنى أعرف ذلك ، ولم أذكر له شيئاً - الى اليوم - حينما كان يقول :

- كنت اتحدث مصادفة مع صديق لى من رجال الأعمال ، وسألنى عما نوى ان نفعله فى القصر ، وأكد لى ان هذا الوقت هو انسب الأوقات للحصول على ثمن مقر ربما لا نستطيع الحصول عليه فى وقت آخر ! .

ولم أكن قد اطلعت أمك على ذلك السر ، ومع ذلك فقد أدركت من نظراتها السريعة نحوى أنها فهمت .

والقصر بحالة مباتيه الراهنة لا يساوى شيئاً ، بدون حديقته

الواسعة التي تدخل بين أسواره الأربعة العالية .

وعد فامد على جانبي الطريق دور حديثة مرتفعة البناء من ذات الطوابق الستة ، ولم يبق إلا عدد قليل من القصور الخاصة التي تحكى العر التالذ والرخاء القديم ، فلو أتيح لهم إزالة قصر ما جالى لشيدوا مكانه عددا من الممارات الجميلة على أحدث طراز تسكنها مئات من العائلات .

وعد ما كنت أكثره من اعماقى ان اسمح ليد الهدم ان تلك ذلك البيت الذي أحبه أبواى ، وشهدت فيه ذكريات عزيزة على نفسى مما يفسر تلك النظرة المتجهمه العاسة التي كانت تبدو فى وضوح على وجهى . النظرة التي كانت تبدو على وجهك أيضا وانت تكتم نورتك واحتجاجك على ما تتخيله من اضطهاد امك لك ! . كنت أمرف - اذن - ما وراء ذلك الحماس الذي كان يتحدث

به فاشيه وهو بسيط وجهة نظره فى اقناعنا بقول ذلك الصرخ الذى أقبل الينا يحمله مفوضا من ذلك الصديق - رجل الأعمال - فقد قيل لى : ان مؤسسة البناء قد وعدته بعدد كبير من الأسهم لو افلح فى انعام الصفقة ، ودفعنا على التخلي عن ارض الأباء . ومع ذلك فقد اغلقت فمى وتركزت لوالدتك الاتفاقى على كل التعاصيل المالبية وطريقة الدفع ، وكذلك اتجع الوسائل لخدبة الحكومة فى انقاص قيمة التسجيل وشهر الارث المطلوبة منا .

واتفقا على أن نذهب لقنالة المحامى فى القد ، ولما كان أبى قد توفى دون ان يترك وصية من بعده فمن المعروف ان الثروة تقسم مناصفة بينى وبين شقيقتى أوليت .

وكما قلت لك - لم يكن فى ذلك أى شيء يدعو للفضة أو السرور ونحن نتقاسم كالدئاب الجائمة ما تركه لنا الأمد ، لذلك شد ما كرهت ان أرى فاشيه يكاد يرقص فرحا وهو يخطر بيننا وكأسه فى يده قائلا :

- يحسن بنا ان ننتهى ايضا من موضوع الكتب والكتبة ، اذ لا مناص من ان نبيع كل النقولات فى المزاد .  
والنقولات التي يعنى فاشيه انها سوف تباع فى المزاد هي الأثاث والمفروشات التي اعطى أبى وأمى جزءا كبيرا من حياتهما

فى جميعها وقضيا بينهما أيامهما الأخيرة .

وفوجئت بشقيقتى أوليت تقول :

— ما عدا قمطر أمى الصغير الذى اعتادت أن تكتب عليه ، ولقد  
ومدت قبل وفاتها أن تبديه لى ، ولم أشأ أن أقول لكما ذلك حينما  
صامت ، أما الآن وقد . . .

وساللتنى أمك : هل كنت تعلم يا آلين أن أمك وهبت قمطرها  
الى أوليت ؟

وكان صوتى خشنا حادا ، وأنا أقول فيما يشه الصباح :  
كلا !

— أوه يا آلين ! ولكن حاول أن تذكر يوم أن كنا جميعا فى  
لاروشيل . . .  
— كلا !

— ما أضعف ذاكرتك حقا ! ومع ذلك فانا التمس العلم لك  
بسبب ندرة زيارتك لأمى فى أيامها الأخيرة .

— أن ما أحب أن أعرفه هو ما الذى كان زوجك يريد أن يقوله  
بشان المكبة !

— آه ! مجرد اقتراح فكرت فى أن أعرفه عليك . ولكن يخيّل  
الى أن أعصابك ليست على ما يرام .  
— هانذا أنصت اليك .  
— أراغب حقا فى أن تسمعنى ؟  
— أجل .

— لقد كنت أكثر اتصالا بابيك ، وأعرفه أكثر منك ، ففى  
لاروشيل خطبت شقيقتك ثم تزوجتها وبين جدرانها وضمت باكورة  
التاجى وكنت أنت فى ذلك الوقت ما تزال طالبا لم تحدد بعد طريق  
مستقبلك . ثارة تقول : أنك تحب الانخراط فى السلك الإدارى ،  
وثارة أخرى تراعى أنك تفضل أن تكون استاذًا فى العلوم ، وفى ذلك  
الحين كان أبوك ماكنّا على جميع كتب التاريخ والفلسفة والأدب ،  
وفى البناء وجوده بلاروشيل لم يترك أى كتاب جديد وكان يتردد  
دائما على دور النشر ومكتبات سوق دوميتاج حيث كانوا يعرفونه

كلهم ، وكما تعلم كانت القراءة وتنسيق الكتب هي تلبية الوحيدة حتى آخر أيام حياته .  
وصمت فائسه لحظة ، كان يستجمع انعاسه ليلقى قنبلته الأخيرة !.

— وحيث انى قد اتخذت الادب حرفة لى ويهمنى كثيرا ان احصل ...

ولا تدعنى اذا علمت انى لم اتق بذلك البهيم من التساقطة المجاورة ، ولم الكه او اصفه على ففاء ، فقد كان اقتراحه يتلخص فى ان يبادلنى ، لا ، ليس ذلك هو التعبير المناسب ، بل الأصح هو احتلاس مكانه لى بما تحويه من ذخائر نفيسة مقابل ان يترك لى باقى الأثاث والمنقولات !.

ويبدو انه اساء فهم سكوتى ، فقد لبثت جالسا فى مقعدى المريح مشبكا بدى حول صدرى محطقا فى السجادة امامى ، فاسترسل فى اعرائه ، بل فى هرائه :

— اؤكد لك ان من الأثاث تحفا تعتبر نادرة يمتنى الهواة ثرائها بأثمان خيالية ، ولا تنسى اللوحات الجميلة .

فوثبت واقفا فى حركة عنيفة تماما كما فعلت انت على مائدة الطعام ، وقلت فى حدة :  
— كلا !.

ويبدو ان حركتى كانت مباغنة واجابتى كانت فى حدة السوط ، بحيث الجموا جميعا ونسحروا فى أماكنهم . وهم يرمقوننى فى دهشة وخوف . بيد انى اولينهم ظهروا وخرجت بعد ان صققت الباب خلفى فى حدة !.

ولم اذهب لفراشى مباشرة كما فعلت انت ، بل انفردت فى مكتبى امضع غبظى وغضبى ، حتى اقبلت امك تقول : « تقبلك انصرفا » .

ثم اردت وهى تجلس امامى فى ظلال الغرفة بعيدا عن دائرة مصباح المكتب الكهربائى .  
— حسنا فعلت بتركك الغرفة ، فقد كان يبدو عليك الفزع الشديد وخعت ان تفقد السيطرة على نفسك !.

— وماذا قال ؟ —

كنت أعرف من أنه لابد من أن يقول شيئا ، وصحنت أمك لحظة  
لم أجابت :

— اتحب حقا أن تعرف ؟ —

— نعم ، نعم ، نعم . —

— قال . أنه لم يتوقع قط تلك المشاعر الكاذبة التي عبرت بها  
عن حبك لأبيك وتقديرك للذكراه ، كأنك لم تتسبب في كل تلك الكوارث  
التي قصصت ظهره ! معلومة يا ألين ! أنت الذي طلبت ذلك ! .

— وما الذي قررتموه أخيرا ؟ —

فأجابتنى وعلى شفهيها بسمه الفوق :

— لقد أتممت الاتفاق على أن تبقى المكتبة لك مقابل أن تتسرك

لهم حصيلة بيع الأثاث .

— وفمطر أمي ؟ —

— أذنت لتسقيتك أن تحتفظ به ، لأنه لا يناسب نظام بيتنا ،

ولكنك ستأخذ فمطر أبيك ومقعده الكبير . . . والآن : هل تعلم إلى

أين نحن ذاهبان ؟

— كلا . —

— إلى أحد المطاعم حيث نتناول عشاءنا على نفقات الأوركسترا .

وكانت تلك أحسن وأصوب فكرة وخير ما قطعت والدتك .

والله ما أعجبه من يوم حافل بالمفاجآت ! فما أن خرجنا من

المصعد حتى قابلناك .

— هل تأتي معنا لتناول العشاء معا يا جان بول ؟ —

ولم يطل ترددك ، فلفد جئت معنا في الحال إلى المطعم !

### الفصل الثالث

لقيت أمك لأول مرة في مارس عام ١٩٣٦ واسمها وقت ذلك

« اليس شافرون » ولكن كلانا في الحادية والثلاثين بفارق شهر

واحد بين عمريتا .

ولم يكن لربيع ذلك العام — بالنسبة لنا نحن أبناء ذلك الجيل

— أي شبيه بين سائر فصول الأعوام التي مرت بنا ، فقد جرقتنا

هواه في الأحداث العالية الثيرة والأزمة الدولية المستحكمة ، وترك  
كل منا مدرسته وقرينته ومصنعه الى بقاع في الجمهورية بعيدة عن  
من مسقط رأسه لم يحلم قط بأن يراها .

وكننت ضمن من شملتهم التعبئة العامة قبل ذلك ببضعة شهور  
» في خريف عام ١٩٢٨ « وأرسلونا لحماية الحدود من العدو  
المرتقب ، واعتقد الكثيرون منا أنهم يودعون أهليهم الى غير عودة أو  
لقاء ، أما أنا - وكننت أحمل رتبة الملازم في احتياطي المدفعية فقد  
كلموني السفر الى الفلاندرز ، وكان الطقس باردا والأمطار الغزيرة  
قد أحالت كل الطرق الى برك ومستنقعات ، فكل ما كنا نلمسه  
أو يرتديه رطب موحل حتى سيارات النقل التي تكومنا فيها  
كفراوات البطاطس وغرف العنادق الخلفية الكثيبة التي كنا نسطر  
للتوقف فيها كلمسا خيم علينا الظلام ، كل شيء كان يبعث على  
المرض .

وكننا نقابل في طريقنا الآفا مؤلفة من المهاجرين : عجائز وكهول  
وسيدات في مقتبل العمر معهن أطفالهن ، الجميع يحملون ما خفف  
حملة وغلا ثمنه هربا من الموت ، يمشون لياليهم مفترشين الأوحال  
ملتحمين بالسماء ، هم أكوام من اللحم الآدمي المذمور المرقود ومئات  
الآلاف من الأمواه الجائمة والبطون الفارعة يتركون طابعهم المميز  
في كل قرية أو مدينة أو حقل يمرون به كأسراب الجراد الشره  
بما تراه أينما أدت بصرك من اضطراب شديد في سوق المعاملات  
والطعام أو الأخلاق !

وأخيرا وصلت مع فرقتي الحدود البلجيكية حيث انتهى بنا  
المطاف في قرية هندكشوت .

وكننت أرى معالم الفضب واليأس المرير بادية على وجوه رفاقي  
الذين انتقلوا فجأة من حياة اللهو والترف والدعة الى العيش في  
العنادق وخلف الأسلاك الشائكة ، على نقيسى ما كنت أشعر به من  
السعادة الطاغية ، والرضا العميق والاستسلام للنهاية السعيدة  
مهما حدث ، بالرغم مما أحدثته تجنيدى المباشت من انقلاب خطير في  
نظام حياتي .

وكان قد مضى شهران على قبولى في وظيفة صغيرة في شركة



التأمين ، ولم أكن قد شغلت بعد تلك الغرفة الانيقة التي تعرفها والتي لاحظت أن رفوف جدرانها مكدسة بالمجلات والأضابير .

ولقد باني حينما الحق بتلك المؤسسة الشامخة بشوارع لايت ولم أكن قد تجاوزت الحادية والعشرين لم تكن لدى أدنى فكرة عن أعمال المحاسبين الاكتواريين ، ولم أحلم قط بأن أكون خبيراً اكتواريًا ، فبعد أن حصلت على ليسانس الحقوق بذات أدرس للدكتوراه في القانون ، ثم إذا بي - وفي غمضة عين - وبسبب تلك الحوادث المؤسسة التي وقعت في ١٩٢٨ ألقيت نفسي مضطرا للبحث عن عمل أكسب منه قوتي ويساعدني في الإنفاق على دراساتي .

وولكلوا إلى - بادية الأمر - تأدية بعض الأعمال القضائية الخفيفة تحت إشراف ذوي المراتب والخبرة من رجال القانون ، بالإضافة إلى دراسة تدريبية في ترتيب الأوراق في الملفات والدوسيهات وتبويبها وتنسيقها .

وبدلت أقصى جهدي في أن أثبت للجميع كفايتي ، وشمرت عن ساعدي وأقيمت نفسي وصحتي على حساب وقتي الذي كنته أذخره للدراسة ، فحرمت نفسي جميع الراحة والمطالاة والأجازات وسهرات المجتمع ، مما أثقل كاهلي ، ولكنني لم أعبأ بذلك كثيرا ، ما كنت أكاد أنتهي من عملي في شارع لايت حتى أنطلق مباشرة إلى غرفتي في شارع لابراديس فأوصدها على نفسي ، أو ربما ذهبت لحضور إحدى المحاضرات الأدبية أو الندوات الثقافية .

وقد لاحظت أبي شدة انزعاجي ونحولي المستمر بطلب من شقيقتي أن تسترعي نظري إلى ذلك فقالت لي ذات يوم :  
- أراك تعذب نفسك وكأنك قد صممت على قتل نفسك !

بيد أن ذلك لم يكن صحيحا تماما ، وإن كان فيه شيء من الحقيقة . لم أكن قط بل كنت أهمل إلى تطهير نفسي والتكفير عن ذنوبي وبمعنى أكثر وضوحا ، كنت اعتبر روحى مدينة بالوجود لأبي ، وكان العمل الشاق المستمر وسببتي التي أهملت إليها لوقاء ببعض ديونى له . .

وحين تقرر ترقيتي إلى منصب قانوني كبير - ولم أجد سواي الخامسة والعشرين - رفضت تلك الترقية في عناد ، وطلبت تقلى

الى فرع الحاسبين بوظفة كاتب بسيط لامتحن على الآلة الالكترونية الحاسبة ، ولا تدهشني ولدي - كنت أجد لذة عميقة تفرح مشاعري كلما اهنت نفسي وأذللتها ، ولم أكن وقتئذ ماهرة في الرياضيات والمعادلات التي لم أعرفها أهمية من قبل في اقتناء أتكبي على دراساتي القانونية ، وكان على أن أهب نفسي لعالم الرموز والأرقام ، لاكون مثل تلك الآلة الصامتة التي لا تخطئ ولا تكل من العمل ليل نهار !

وكانت غاية راحتي وسكينة نفسي وسعادتها كلما حججت الى قصر ماجالي في نويسينيه ، وسعدت بالنظر في عيني أبي ووجهه الحبيب الى قلبي كل أحد ، لأقضي معه لحظات قصارا ، وما كنت أنحلف قط عن موعدي ، على نفيص شقيقتي وزوجها اللذين كانا نادوا ما يحضران .

وهكذا .. كنت في عام ١٩٢٨ - أعد نفسي لدخول مسابقة الدكتوراه ، فاكفا آن ذاك على اعداد المراجع والمذكرات ، بالإضافة الى أبي كنت أقوم في مكبي بعمل جميع زملائي اللذين قاموا بالاجازات الصيفية !

وعندما بدت بدر الحرب في الجو السياسي ، وبدأت كل الدول تنأهب وتعد نفسها لذلك تلقيت أمرا بالارتداء انزي العسكري والإحباط في سلك التدريس قورا .

كانت صلحة عنيفة ظلت مشروعات حياتي ، رأسا على عقب لا فبعد عشرة اعوام من الكفاح والعمل الكبير المتواصل الذي كنت قاب قوسين أو أدنى منه لافتتاح مستقبل مشرق مشرف يرفع رأس عائلتي ، وأحقق فيه الطموح المتوالب في أعماقي ، وأجني فيه ثمرة تعبى أجد نفسي مرة أخرى وقد غدت ضحية للزمن كورقة شجر يابسة تعث بها رياح الحريف القاسية ، وفي مكان ما من الأراضي المنخفضة حيث الوحل والقاذورات ورائحة البارود والموت !

وحتى هذه اللحظة أستطيع أن أرى ميوت قرية هندكشوت ذات الطابق الواحد ، وسيول الأمطار الغزيرة تختلط مياهها بالأوساخ ، وأسمع رنين طامات الجعة النحاسية في الحانات !

وضحكات الجتود السكرى ورائحة العرق مختلطة بدخول التبع  
وعن الخمر الرديئة ، كل ذلك يملا أذنى وأنى لأمر .  
و ذات مساء وفى الراسية ، كنت أقف مع بعض الزملاء منشحا  
بمطعم فضفاض من الجلد الواقعى من الماء ، فأقبل علينا أحد صباط  
الجمارك مسرعا وقد أحمر وجهه ولعت عيناه ، أقبل بعدو وكأنه  
يطير فوق الأرض يكاد يتعجر من اللهفة والسرور ويترح من أعماق  
قلبه :

- ابشروا يا أولاد ، الحرب انتهت ، ستعودون جميعا الى  
بلادكم !.

كان يقهقه فى جنون ، كما لو أصابته لوعة ، وكان وجهه مبتلا  
بماء المطر والدموع !.

كانت الاتعاقية ميونيخ قد وقعت وعدت حقا وبعد أيام قليلة الى  
القصر الرمى فى شارع لافيت . .

ولكن لم يكتب لهذه الاتعاقية أن تعيش طويلا ، ولم يكن هناك  
سلام كما ظن الناس - بل كانت خدعة من الخدع الكرى وصحكا  
على الدفون ! . وكان ذلك نصرا لتجار الحرب والسلاح - ومضت  
كل حبة تشد أتيابها وتساعد للموقعة العاصلة نحو سار كادى  
من السلم ، اما انا فلم اكن ابالى كثيرا ، بل لا تدهش اذا صارحتك  
بانى كنت ارنو الى الموت والتصحبة بجائى فى سبل الدفاع من  
الوطن ، حتى اكفر عن خطيئتي وانامى ، ولكنى ما كنت اعود حتى  
التهب كليئاي ولزمت الفراش فى غرفتي بشارع اوعظم طوال  
ديسمبر . . وبذل طبيي هذا كبيرا فى اقناعى بضرورة السفر الى  
« لومبىنيه » لكون بحث وعابة والذى فترة العلاج ، يبد انى  
ضربت نصيحتة عرض الحائط ، وبقيت فى مكانى اشغل وقتى فى  
قراءة « مذكرات ساللى » كما اعدت قراءة مذكرات الكردسالى ريتز  
للمرء الثابتة - وكان ابى قد اهداها لى من قبل .

وحين عدت لامتائف عملى فى يناير ، كنت متنعق الوجه ضعيف  
الاعصاب غير متزن الخطوات ، ومع ذلك فقد صممت على مباشرة  
واجباتى مما هال زملائى وروعهم ، واصروا جميعا على ضرورة  
قيامى باجارة مرضية .

واذ كنت أحمل في نفسي ذكريات جميلة منذ الطفولة من مقاطعة جراسي بساحل الرفيفيرا - حيث كان أبى نائباً لحاكمها ، فقد اشتد لى الحنين للعودة الى زيارتها ، فحملت حقيبة لىساي وبها بعض الكتب التى تبحث فى « تقدير الخطر بالنسبة لشركات التأمين » وانطلقت بمفردى الى مدينة كان ثم نزلت فى فندق صوكيه ، وهو مكان جميل يشرف على المدينة ويطل على البحر ، تحيط به أسوار عالية من اشجار السنط والكافور .

وكنت اقضي اكثر اوقاتي جالسا الى نافذة غرفتى انامل القوارب البخارية ذات الألوان الزاهية تروح وتغدو فى الميناء الكبير ، واتعمن لى مياه البحر الزرقاء واسطح البيوت القديمة المكسوة بالقرميد الأحمر حين تنمكس عليها أشعة الشمس الساطعة ، واتطلع فى شرفات الممارات الشامخة القريبة وما يدور فى ظلال قرعها من الداخل من مظاهر الحياة العائلية السعيدة .

وشعرت فى يوم شديد الحرارة ، شمس ساطعة ملتهبة ، ياغراء شديد نحو البحر فانطلقت للاستحمام ، وكان ذلك خطأ كبيراً متى اذ أصابتنى حمى شديدة فى اليوم التالى ولم أشعر بشيء وتقلتني سيارة الاسعاف الى مصحة ذات حديقة واسعة فناء . وهناك ، قابلت الممرضة اليس شافرون التى أصبحت فيما بعد زوجة لى ووالدك .

واننى حينما اصف لك تلك الحقبة من حياتى تفصيلاً انما أقصد بذلك أن تبين من جلاء وبقين ، ظروفى وقت ذلك ، كنت فى حالة نفسية لا احسد عليها ، وحالتى الصحية فى غاية السوء بين الحياة والموت ، كذلك كان العالم كله فى مثل حالتى : شيخ مريض تنهيه الخلافات والأمراض والأحقاد ، يجلس على برميل من البارود ويشهد فترة سلام تلقى مهدد بالحرب والفناء ، ويحسن أيضاً أن اعترف لك بأننى لم أكن خلال الأعوام العشرة السابقة قد تعلقت عاطفياً بأية أنسى لأسباب سوف تعرفها فيما بعد ..

ولا اكاد اذكر الا القليل النادر جداً من أيامى الأولى فى تلك المصحة ، سوى انى كنت فى حالة هذيان دائم ، أشهد خيالات كثيرة واحلم أحلاماً مزعجة ، كنت اعانى مرضاً خطيراً علمت فيما بعد

ائه التهاب وتوى حاد كاد يورقنى حتى ولم يكن قد تم اكتشاف  
البينسلين او مركباته فى ذلك الحين !.

وكانت بالمصحة ممرضات ذوات كفاية يتناولن الخدمة ليلًا  
ونهارًا ، ويعمن بواجباتهن خير قيام .

بيد انى كنت لا اميل الى رئيسته التى كانت تتحدث بلسنة  
روسية ، واظن انها كانت احدى المهاجرات الروسيات . وايضا  
لنكلمها الظاهر فى ملاطفتها للمرضى - اما الثانية وكانت من بقات  
ذلك الاقليم ، وهى عانسى قصيرة الساقين تنبعث منها رائحة زيت  
الخروج ، وفى الخمسين من عمرها فكنت أنقر منها بالفريزة برغم  
انها كانت تحدثنى كما كانت تفعل جدتى ، وتبالغ فى لطفها بى وهى  
تضمنى فى فراشى وكانى « فائزة » ثمينة من الكريستال !.

اما امك فكانت اجملهن وجها وارشفهن قواما واكثرهن جاذبية  
كما تراها اليوم ، وكما ستراها الى ما شاء الله ، لم ولن تؤثر فيها  
السنون والأعوام ما عدا خفة فى الحركة كانت تمتاز بها وقت  
ذاك ، لم يكن مبعثها رعونة أو طيشا ، بل اكبر الظن ، حيوية متدفقة  
مصحوبة بكثير من الاغراء والرغبة فى الاستقرار العائلى الذى كان  
ينقصها فى ذلك الحين !

او لعلها كانت هى الاخرى تعاني ما كنت أعانيه ، وتلدرك انا  
نعيش فترة توفى وانتظار صدور الحكم بالاعدام على الدنيا  
باسرها !.

رايتها - اذن - لأول مرة خيالا ابيض بين غضيب الحمى ؟  
وسمعت صوتها قبل ان اميز لها صورة واضحة المعالم .

كذلك هى ، حينما وقع بصرها على لم أكن الا مجموعة من  
العظام ، شبحا هزيلا يرتعش من راسه حتى اخمص قدميه من  
شدة الحمى ويعطى جسمه المرق الفزير ، مجرد بانس صافته  
القددير مثل باقى المرضى الى تلك المصحة ، اذا امتد بى جبل الحياة  
وعشت ، فمرحبا وألف سلامة ، وان مت قيدت اسمى فى سجن  
الوفيات ، وابدلت افطية فراشى لمرض يائى مكاتى فى القيد ؟  
ولكنها - برغم ذلك - وهو ما هجبت له فيما بعد - كانت تخصنى  
بالتكثير من العناية والرعاية حتى قبل ان تتوثق صلاتنا او تعرفه  
هنى شيئا !.

كذلك أحسست بدورى - كما ذكرت لك - بعيل غريب نحوها  
لم اشعر به تجاه زميلاتها الباقيات .  
وأرجو ألا تتسرع ونسي الظن فتحسب ذلك حبا ، فنحن لم  
تبادل الحب قط فى يوم ما ، بل كانت صداقة توطدت أواسرها  
شبيهة بذلك النوع الذى ينمو بين جنديين فى عمر متقارب يعيشان  
فى خندق واحد بالخطوط الأمامية بميدان القتال ويتوقعان الموت  
فى أية لحظة . الأمر الذى يضطرهما - بحكم الظروف - إلى رفع  
كل تكليف بينهما . .

وما زلت أذكر أول عبارة سمعتها منها :  
- لقد سمح لك الطبيب اليوم بقليل من حساء الخضراوات ،  
وكعكة ثم بعض المربى . فهل تشعر بالجوع ؟  
ولا أحتر عنك أنه قد ضاعبى منها حيويته الدافقة ، فكانت  
لا تستقر فى مكان . تنجز عشرات الأشياء فى وقت واحد .  
واستطردت تقول وهى ترمقنى بعينها الساحكة ، أنا ابتاهل ،  
الطعام :

- لك أصدقاء أو أقارب هنا فى الرفيرا ؟  
- لا أعرف أحدا بالمرة .  
- وفى باريس ؟ ألسنت مقبما بباريس ؟  
- بلى ومع ذلك فلا أحد لى هناك ، ليس لى إلا أبواى فى  
لوفسبنه !  
- أغمضى معهما ؟  
فهزئت رأسى نفيا .  
- سيناء لك غدا أو بعد غد أن نكتب لهما شيئا .  
- أشكرك .

- ولم أعرف شيئا عن حياتها إلا بعد فترة من الوقت ، فقضت  
أعتادت أن تحضر لفرقتى وتجلس معى كلما منحت لها فرصة  
فراغ ، وتترك الباب مفتوحا حتى تستطيع أن تسمع صوت الجرس  
الخافت الذى جعلوه خافتا حتى لا يزعج أعصاب المرضى أو يوقظ  
النائمين . وكان ذلك الجرس يعمل باستمرار ، ودائما يقطع علينا  
حديثنا ، فتنبه واقفة وهى تقول ضاحكة :

— أنهم لا يستطيعون صبرا ، يخيل اليك أنهم في آخر انقسام !  
أو تقول مثلا : هل رأيت ؟ أنه رقم ١٧ يطلب الحقنة !

واستطعت — في خلال ثلاثة أيام — أن احفظ أسماء كل  
مرض الطابق الذي أقيم فيه ، من الجنسين دون حاجة لأن أراهم ،  
فقد كانت تحدثني دوما عن كل فرد منهم وعن مرضه وطباعه .

وقرئت بوفاة أحدهم في إحدى الليالي ، وكان مريضا بمرض  
عباء ، ولم استطع النوم بسبب الخطوات المنصصة والهمس اللاتر  
في الممر ونداءات التليفون ، ثم حركات عجلات النقالة ، وكنت قد  
لمحت القس وهو يمر ببابى في الليلة السابقة يوسع الحطا وكأنه في  
عجلة من أمره .

وكانت أليس شافرون ممرضة السهرة ذلك المساء ، فلما  
أقبلت لزيارتي في الساعة صباحا ، كان وجهها نظرا متألعا  
وابتسامها رائعة ككل صباح !  
— هل سمعت شيئا ؟  
— أجل .

— أنه سعيد الحظ فقد أراحه الموت من الآمه التي تفتت  
الأكباد ، ولا يبقطنى إلا جحود أولاده الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء  
زيارته إلا مرة واحدة منذ ثلاثة أسابيع ! ذلك برغم أن إحدى  
بناته متزوجة وتقيم في نيس ، وابنه يفتح جراجا للسيارات في  
جراسي نفسها ، أتني أعرف كل شيء عنه ، فهو لاجئ إيطالى جاء  
لهذه المدينة جائئا مفلسا وبدا حياته في أعمال البناء ، أما الآن فهو  
تارك لهم ثروة ضخمة يميل لها ألعاب ! وسوف تراهم حيثما  
يسمون بوفاته يهرعون نحو جثته يتباكون وينديبون بالموسيقى  
وأغلب الألحان !

ورمقني بعينها الباسيتين ثم أضافت ضاحكة :  
— هل ترجعتك رؤية الموت ؟

— كلا .

— أنه صدمة للذى الأعصاب الضعيفة من المرضى ، مما يجعلنا

مضطرين الى التزام الهدوء وعدم احداث أى صوت او حركة ما  
امكننا .

وسالتها : واين هو الآن ؟

- فى الطابق السفلى لدينا غرفة خاصة بالموتى فى البليوم -

- هل تعملين فى التمريض منذ امد طويل ؟

- حصلت على الدبلوم منذ اعوام ثمانية ، ولكنى الآن فى مثل

عمره !

- وكيف حدثت عمري ؟

- مكتوب على تذكرة سريوك ، انتا تكبرينى بشهر وثلاثة

ايام !

وكان طقس الظهيرة ساخنا ، فتركت نافذة غرفتى مفتوحة :

واستطعت ان ارى من خلالها قمم اشجار الكافور العالية وزرقة

السماء الصافية ، ولم اكن قائدا على القراءة او تأدية أى عمل

سوى انتظار زيارة الطبيب مرتين فى اليوم بعد تنظيف الغرفة :

وتنظيفى انا ايضا ، وفرفبى موايد الطعام بفروغ الصبر .

ولم فترة « نواليت الصباح » كانت احلك لحظات حياتى

محنة حقيقية اجتاز فيها حطقات من الخزي والغجل العميق ، وما

ان تنتهى الممرضة من ان تستبدل بملابى اخرى جميلة الرائحة :

بعد ان تفسل جسمى بالماء الدافئ والصابون ، وبعض الكولونيا :

لم تضعنى وسط الاغطية الجالة الجديدة ، حتى اتهد فى ارباج

شديد ، واشعر كائى قد ولدت من جديد !

وكنت قد اوسلت بطاقة لائى وامى اصف فيها سرورى من

رحلتى الجميلة ، دون ان اشير لمرضى ، وكانت اليس مسافرون

لذهب الى فندقى وتحمل لى الخطابات التى ترد باسمى الى

المسحة .

ولم يدرك بخلد احد منا اننا مترطب معا بذلك الرباط الابدى

بل اكاد اقسم ان احدهما لم يكن ينظر للآخر الا كما ينظر الانسان

الى رفيق له فى السفر فى باخرة او قطار او فى حجرة انتظار !

ولم اكن قد عرفت من امرها شيئا بعد ، بل حتى حين عرفت



لم يكن ذلك دفعة واحدة ، بل كان قليلاً منه في مدينة « كان »  
بالصحرة ، ثم خلال أيام نقاهتي ، وأخيراً خلال فترة زواجنا .

كان أبو والدك نورمانديا ممن يحملون اسم غليوم ، ويؤمن أنه  
يشعر من سلالة وليم العاتق ، ولد في فيكامب بشارع ديثريات ؟  
من أسرة متوسطة الحال حيث كان أبوه يعمل حارساً لصناديق تخزين  
الخمور .

وكان رجلاً ذكياً منذ طفولته تفوق على أقرانه مما شجعه بفضل  
المساعدات المادية التي قدمها إليه أصحاب المصانع على أن يواصل  
دراساته ، وكان النجاح حليفه من مقرومة لأخرى حتى حصل على  
البكالوريوس في التاريخ ، واشتغل مدرساً في اليسييه .

ولم تولد أمك في نيس ، بل في بوجي ، حيث عمل أبوها في  
بند حياته ، وحين كانت في الرابعة من عمرها ، نقلوه إلى الريفيرا  
- ولا تضحك إذا ذكرت لك أن أبي - في تلك الفترة بالذات ، كان  
حاكماً عاماً لمقاطعة لاروشيل .

وعندما ضاهينا الأوقات معا : اكتشفنا أننا كنا نمشي في  
الريفيرا - وكلاهما بين الخلسة واللداسة - لا يبعد أحدهما عن الآخر  
بأكثر من أميال قليلة : هي في نيس ، وأنا في جراسي . وقد مكثت  
هي أما نحن فقد رحلنا .

الذكر يوم أن كنت معنا في رحلة بالسيارة ومرونا ببيت أحمر  
قديم عريض الوجهة متعدد الغرف والطوابق ، وبادلت أنا وأمك  
النظرات ! ذلك هو بيتها الذي ولدت فيه ، وما زالت جدتك به وقتنا  
أمنت عجوزاً فرديسا ، وكانت قد اشترت لي عليه في مرة سابقة  
أنه أحد البيوت ذات الطراز الإيطالي القديم التي تزخر بها الأحياء  
القديمة في المدينة فيما بين ميدان مسينا والميناء الكبير ، وإذا مررت  
بتلك البيوت في الظهيرة حسبتها من نوافلها المغلفة مهجورة خالية  
من الناس ، وما أن يحل المساء حتى تلفظ ما في بطونها وتطن كل  
قرنة بالأميين كخلايا النحل ، ثم ينتشروا على اعتصاب البيوت  
ويجلسوا في أركان الشوارع يزعمون لرصفتها حتى سامات متأخرة  
من الليل !

وهذه الجدة : هل تذكرها ، وقد زارتنا منذ عدة سنوات قبل  
أن يعضها المرض ؟

كانت في شبابه نموذجاً دائماً في الجمال تحترف بيع السمك  
فوق عربة يد تدفعها في ذلك الحي الشعبي من مدينة فيكامب ،  
فهو تراك قد افترعك هذه الحقيقة التي قد تضيء لك الطريق في  
فهم والدتك .

كانت جدتك تكافح في سبيل الميش ، بعد ان تلقت شللات  
من العلم لا تسمن ولا معنى من جوع ، ثم أصبحت ذات يوم زوجة  
للمدرس شافرون الذي يتحدر من غليوم سليل الامبراطور ولیم  
العائج الذي دوخ أوربا !

وكانت الحبرة كلها تحسدها على ذلك ، وقد اكتسب زوجها  
مهابة وجلالا ، برمقونه بكثير من الاحترام وهم يستوفونه في  
الطريق ليقرأ لاحدهم خطابا أو يكتبه آخر رسالة له ، أو  
يشدبوه لاحراء مصالحه أو فض نزاع أو مشاجرة ..

ولم يسعدي الحظ برؤية مسيو شافرون قط ، اذ كان قد  
فاجده بويه فلبية فحس عليه قبل ان اذهب الى مدينة « كان »  
يضمه اعوام ، لكنني سمعت الثناء الماطر عليه ممن عرفوا فضله  
وعلمه ، كذلك شاهدت مجموعة من صورة الشمسية ، كان يبدو  
فيها متجهما عابس الوجه ينظر من تحت انفه في كبرياء وأبهة  
واستعلاء .

ويخيل الى انه لم يكن موفقا في رجبته من يائمة السمك الفاتنة  
وخاصة بعد ان صار ابا لاربعة اطفال ، كانت أمك صغراهن ،  
ونصاعت بفقانه ولم يكن له دخل سوى راتبه المحدود ، لا يكفي  
الحاف في المستوى اللائق بمركزه أمام تلامذته ، مع المحافظة على  
مكانة الأسرة التي انحدر منها ، بوبقينا ، كان جيرانه الفقراء الذين  
ينامون على الطوى اسعد منه حالا مع صخبهم التواصل ومشاجراتهم  
التي لا تنتهي ، لانهم اعتادوا ذلك النمط من الحياة المنقشفة  
لا يشكون ولا يتبرمون بل كانوا راضين قاهنين !

وكل واحد من ابنائه الاربعة قد شق طريقا يختلف عن الآخر :  
أكبرهم « أميل » انخرط في البحرية وهو في السابعة

عشرة ، ثم تركها بعد خمسة أعوام الى مدغشقر حيث اتفعلت  
خطاباته عنا ، ولم نسمع عنه إلا ما حمله بعض الموظفين العائدين من  
انه قد تزوج احدى بنات الجزيرة وانجب منها ثمانية أو عشرة من  
الأولاد .

وامك لم تذكره قط امامك ، حتى لا تحتذيه مثالا .  
أما جان - الابنة الكبرى - فقد تزوجت بدالا ايطاليا كان  
يفتح محلا في « غنبي » ثم افلس فأغلق أبوابه ورحل معها الى  
الجزائر ، وهناك نشاجرا فحصلت على الطلاق منه ثم تزوجت  
انجليزيا وما زالت تقيم معه في ديفونشير  
وتليها - لوبزا - التي دخلت الدير .

وكانت أمك قد أنهت دراستها واجتازت امتحان الكفاءة  
« البوشو » والتحقّت وهي في السابعة عشرة عاملة على الآلة  
الكتابة في إحدى وكالات المصدير ، ولكنها قررت فجأة وبعد عدة  
شهور أن تغير مجرى حياتها وتدرس التمريض ، واذ هي التي بقيت  
دون أخواتها في الدار ، فقد وجدت من والديها ارتياحا وترحيبا  
وتشجيعا على مواصلة الدرس والتحصيل .

ولست أدري لماذا تركت فجأة عملها الكتابي المريح ، ولكني  
كلما سألتها عن ذلك احمر وجهها وقالت في ضيق :  
- كنت وفنتذ أوزة حمقاء ، رأسي مشحون بالأحلام السخيفة ،  
دعنا لا نذكر ذلك الماضي !  
مما يجعلني أوقن أن نعمة أشياء خطيرة قد حدثت لها ، وهي لا  
تعب أن تستعيد ذكرياتها .

وعندما حصلت على دبلوم التمريض رقت أن تعمل في نيس ،  
وذهبت لتعمل في مستشفى باريس ومعها توصية من بعض  
الأصدقاء الى الأستاذ الكبير (ب) أعظم أطباء القلب ، والذي لا تزال  
كتبه تدرس في جميع أنحاء العالم ، وتحدثت عنه الدنيا كأعجوبة  
الجيل برغم حداثة سنه .

وكانت أمك في الثانية والعشرين أكثر جمالا وشبابا مما هي  
الآن ، وتحدثت بلكنة أهل الجنوب التي تشف آذان الناس في  
باريس ، وكان هو في السادسة والأربعين - في مثل عمري الآن -

وهنا اتوقف قليلا لأرجو ألا تتسرع في إصدار حكمك عليه  
حتى تصل أنت لهذه السن ، فإذا حسبته أن الإنسان يستطيع أن  
يسيطر على قلبه في الأربعين ، فأنت واهم .

ومن اليسر أن نحدث ما حدث ، وسوف تستطيع أن تفهمه  
بنفسك ذات يوم ، فمما لا ريب فيه أن الأستاذ (ب) قد أغرم بها ،  
ولولا مذهبه الكاثوليكي ووفاء قديم لزوجته - لسرع إلى طلاقها  
والزواج من ( اليس شافرون ) ممرسته الحسنة .

أرى ! هل كانت من جانبها تحبه ؟ لست وأتقن من ذلك ، ولكن  
من المؤكد أنها كانت تحمل له أعجابا عميقا ، وتفسانى في الوفاء  
والاخلاص الشديد له . .

وامضت في المستشفى عامين كاملين ، ولا يعني أن اتناقش  
كيف ومتى كانا يجتمعان في ذلك الجو المليء بالطبسة والمرضى  
والأطباء والزوار وقبرهم ؟ .

ولعل مصادفات الزمن هي التي لعبت دورها الكبير فيما حدث  
بعد ذلك .

فقد كان للأستاذ الكبير طيبة مساعدة تماونه في إبعاده داخل  
معمله الخاص في داره ، سيدة مطلقة في الخامسة والثلاثين لم  
يشك مخلوق في أنها لشدة تفانيها وإخلاصها وحبا لعملها ، تترك  
أستاذها حتى تموت ، لكنها التقت بأرمل ترى كان يتردد على  
الأستاذ للاستشارة والعلاج فأعجب بها ، ثم تزوجها .

ولم يكن ثمة مناس من أن تحل أمك محلها ، وانتقلت للإقامة  
بشارع ( ميرونسيل ) حيث بيت الأستاذ وزوجته التي كانت مريضة  
بمرض غير قابل للشفاء ، لم يقل لها أكثر الأطباء تفأؤلا أزيد من  
خمس أعوام !

ولو مضت الحوادث في مجراها الطبيعي لكنت أمك هي  
السيدة حرم الأستاذ ( ب ) حتى هذه اللحظة !  
كان ذلك أمرا مسلما به معروفا للامة قبل الخاصة ، كذلك  
لجميع أصدقاء الأستاذ وزملائه وعارفيه ، وأيضا لزوجته التي لم  
يكن يشغل بالها سوى صحتها وإيمانها المعفودات !

ولما كانت ظروف الاستاذ تضطره اغلب الايام للسهر فى عمله  
طول الليل فقد اعد لمساعدته غرفة نوم فى المبنى نفسه حتى تكون  
قريبة منه توفر له ما يطلبه وتلبى نداءه فى اية لحظة ، وبمضى  
الايام استولت امك على مقاليد البيت وامتلكت جميع اعماله  
وشئونيه ، واصبحت سبيلته الاولى .

وشهدت بداية عام ١٩٢٨ امك وهى فى الثلاثين من عمرها  
مطمئنة تماما الى مستقبلها الذى لوست قوائمه وثبتت دعائمه  
لثمانية اعوام كاملة بالمرق والدموع ، واذا بالاقدار تضحك منها  
ساخرة ، وتقبل احدى السيارات العامة بسرعة فتصدم امتناذها  
وهو خارج من باب المستشفى الكبير فتقتله على الفور !

ولست ادري ما فعلته امك عندما بلغها ذلك النيا . وكل  
ما اعلمه انها سارعت فخرمت حقائبها فى التو والساعة وغادرت  
للمدينة كلها الى غير عودة ، ودون ان تلقى نظرة على جثة العبيد  
قبل ان يواروها بالتراب !

ولا بأس من أن تعلم أن مدام (ب) قد عاشت ست سنوات بعد  
ذلك ، وآلت ثروة الاستلا الضخمة الى اقارب ارملة « وتقدرون  
لتضحك الاقدار ! »



وفى اللحظة التى كنت احوض فيها الوحل فى طريقى الى  
الفلاندرز ، كانت اليس شافرون تحط رحالها فى مدينة كان ،  
حيث كانت هناك وظيفة شاغرة تنتظرها فى المصحة .

ولم يكن فى صوتها وهى تقص على تلك المرحلة الحاسمة من  
حياتها ما ينم على اى اصف او حزن ، وكنت وقتئذ اجلس قريبا  
من النافذة حيث كانت تقف مستندة الى افرزها بتوبها الايفى .  
وقد عقلت ذوايعها فوق صدرها ، واقلت من شعرها بعض  
لخصلات ناعمة خفيفة كلن التسمم الهادى يداعبها فى رقة فوق  
صفحة جبينها الوضاء .

كان صوتها خاليا من اى اثر للاتفعال او التأثير ، كما لو كانت  
تقرأ لى قصة امرأة اخرى فى كتاب بين يديها ، وهى تنظر الى

الحديقة تحتها في شروود حيث كنت اسمع خطوات بعض المرضى  
يسرون فوق حصى المشى .

وفي اللحظة التي ختمت فيها قصتها سمعنا نريزة الفرفة ١٤  
لذلك الجرس ، وكانت قد حضرت في الليلة السابقة لاجراء جراحة  
عاجلة ، فابتسمت اليى شافىرون وهى تقول وكأنها قد استيقظت  
لنوها من حلم جميل :  
- دنيا عجيبة ! اليس كذلك ؟

وبعد ذلك ، بعد ذلك بأيام كثيرة جدا ، كنت أسترجع الى  
ذاكرتى تلك القصة بكل دقائقها وتفصيلاتها ، وجعلت أدبرها وأفلها  
فى رأسى مرات ومرات ، ولم اشعر بأية غيرة أو مرارة فى حلقى ،  
فاذا كانت قد ارتكبت خطأ فكلنا قد اخطانا ، وأنا بنفسى قد اخطات  
ذات يوم وكفى المرء نبلا أن تعد معايه !

ولقد حدثتها انا أيضا بما وقع منى ، وهو ما سارد عليه  
بعد قليل ، فابتدت مطلقا شديدا على قضيتى ، ومن سمع مصيبة  
أخيه هانت عليه مصيبته !

اذن ، كان كل منا يفهم صاحبه تماما ، وكلانا فاضح رشيد ؟  
وحتى لو كنا نؤمن بالحب ، فكنت تعلم أن ما بيننا لا يمكن أن يكون  
حبا ، بل أصبح وصف له أنه تفاهم أرقع درجة من الصداقة  
العابرة .

ومع ذلك فمن الثابت انه لم يخطر ببالنا فكرة الزواج قط  
وقت ذلك .

ولا شك أننا كنا نفكر معا . على نسق واحد .

فليس منا من هو مرتبط بخطبة أو زواج . والعالم أمامنا  
يرقص على يرميل بارود ، لإبصار أحد منى منمجر ، وأن كانت الدنيا  
كلها تؤمن بأن الانفجار محقق واكيد وقريب ! وعندئذ لن يبقى ولن  
يلر ! وإذا ما افترقنا ، فهو فراق لا لقاء بعده ، قلنا فى طريقى  
لوحدي فى الجبهة الشمالية حيث أنا ملاق لامحالة حتى ، ولئن  
فهمما يحدث بعد ذلك فهو قليل الأهمية عديم الأثر !

ولعل ظروف مرضى وعجزى وقيامها عنى بحكم طبيعة عملها ،  
هادق الأشياء واشد الخدمات حرجا لى ، قد سهل من تفاهتنا ،  
وعجل فى تقاربتنا ، وما كنت أشعر فيه بالخزى والخل ، صار  
أمرا عاديا وطبيعيا دون أى تصنع أو تمثيل .

وعلى فكرة ، كل تلك الأحداث لم تستغرق وقتا طويلا ، بل  
حدثت فى وقت وجيز جدا ، إذ أن مدة إقامتى فى المصححة لم  
تتجاوز ثلاثة أسابيع .

ومع ذلك فقد كان يخيّل الى كائى أقمت فيها جزءا كبيرا من  
حياتى لكثرة الذكريات التى ثبتت صورها فى قلبى ، كل ركن  
ومقعد ونافذة وصوت فى المستشفى . حتى رائحة الكافور التى  
كانت تختلط برائحة الجعة .

وكنت انصور احد الباعة هنالك بين تلك الطرق الضيقة التى  
تتهدر من التل الذى كانت تشرف عليه مصحتنا فقد كنت اسمع  
طوال الليل اصوات البراميل وهى تتدحرج بعضها ممتلئة وبعضها  
فارغة ، وصممت على أن أبين حقيقة الأمر عندما أقابل المكان . .  
ولكنى نسبت ذلك تماما مثلما نسبت أن أذهب لاتخرج بمدرسة  
البنات القريبة منا والتى كانت تنعش منها تلك الضحة الحبيبة  
الى النفس والصباحات الرنانة المرححة مرتين كل يوم فى أوقات  
الفسح بالنظام .

وكان احد المرضى . وهو كهل يتوكأ على عكاز ويرتدى مشامة  
فوقها روب من الحرير ذو ياقة فرقاء اعارتها ابيه ادارة المصححة  
اعتاد كلما مر فى المعنى أن يشمهل امام باب غرفتى ، فاذا كان  
الياب مواربا ، دفعه بطرف عصاه حتى تفتح على مصراعيه ،  
وعندئذ يتقف على العتبة برهة طويلة ينظر الى واجبا صامتا ، ثم  
يهز رأسه وقد بدا عليه اسف عميق وينصرف !

وكنت احسبه بادىء الأمر مشغولا به منى من الحنون ، او على  
أقل تقدير لا يقوى على النطق . . ثم تبين لى بعد أن اوشكت مدة  
إقامتى أن تنتهى انه فى كامل عقله كما أنه صاحب صوت موسيقى

عظيم ، وسجل بالأوبرا « تينور » وكان يقيم منذ ثمانية شهور لإجراء  
عدة جراحات متتالية ، ولم اسمع صوته إلا حين كنت أحزم حقائبى  
لقد قال لى وهو يقف بباب غرفتى بصوته العريض :  
— أمتنى لك حظا سعيدا أيها الشاب !

ثم عز رأسه بطريقة الخاصة ، ومضى .  
وكانت أمك تستأجر شقة مفروشة تتكون من غرفة للنوم  
وأخرى للجلوس ملحق بها مطبخ وحمام فى الطابق الأول فى  
منزل على قمة ميدان « القومندان ماريا » وفى مواجهة إحدى  
الصيدليات .

وكتبت لأبوى بضعة سطور مشيرة لمرضى مهوفا الأمر ما استطعت  
حتى لا أسبب لهما قلقا أو انزعاجا ، كما أرسلت خطابا لشركة  
التأمين التى سمحت لى بأجائزة إضافية ونصحتنى بأن أمتنى  
بصحتى ، وعدت الى غرفتى بفندق « سوكيه » .

وكانت الزهور قد أينعت وأزدادت بها الحديقة التى كانت تبدو  
كبساط ستدسى أخضر جميل ، وأتاح لنا الجو الدافئ الجميل  
أن نجلس معا فى الهواء الطلق لتناول الغداء ، إذ كان عيد الفصح  
على الأبواب ، وبدأت القرية تمتلئ بوفود الزائرين ويردحهم يوم  
مشرب الفندلق وشرفته .

ومضى شهر كامل ، ثلاثون يوما دون أن أقل والدتك أو بخطر  
ذلك بيالى ، وكنا نتقابل فى أوقات فراغها ونذهب للسينما وهو  
أمر لم أفعله مع امرأة ، منذ كنت فى التاسعة عشرة أو ننطلق معا  
الى جزيرة ليرين فنمشى جنباً الى جنب بين الظلال قلعتها القديمة  
ونحت ظلال اشجار السندان والزيزفون ، ثم نجلس فى النهاية  
لوق صخرة عالية نشال أمواج البحر وهى تتعاقب فى سرود  
وجلل .

وبدأ خطر الفكرة بيالى فعلا ، ولكنى لم أخذها مأخذ الجد ؟  
وكتبت أقول لنفسى : ولم لا ؟  
ومما تطيب له نفسى إن أشر الآن أنها كانت تفكر فى الشئ  
نفسه . وأتأ بطريقتى أخرى .



أنها لا تموت في حب ، ذلك أمر مفروغ منه - ولكنها تألفه الخروج والجلوس معي دليلا على شعورها تحوي بالارتياح والود ، وتضحى بأوقات راحتها برغم كثرة مشاغلها وعملها المضني في سبيل قضائها معي ، وكنا نجد في ذلك تسلية وتسرية عن النفس وسعادة لا توصف بلفظنا .

وكانت ظروفها عسيرة ومعقدة .

فوالدها الذي كان أبوه عاملا بسيطا ، كافح ليطفو على السطح ، وأمسى في النهاية مدرسا محترما ترمقه العيون . كان يرجو أن يخلو وحيد حلوه ويصير طبيبا أو محاميا ، لكن آماله قد خابت فيه « أفعد ذلك الفتى الذي هرب الى مدغشقر ولم يصب من العلم شيئا » كذلك شقيقتها : لا شك في أنهما بللا أكثر ما استطعان في سبيل الارتقاء لكنهما فشلتا ماعدا زوجة البقال التي لم ترض بحياة الفقر ، فطلقت لم تزوجت الانجليزي صاحب مزرعة في ديفونشير .

وهي لم ترض أن تظل طول حياتها أسيرة مكتب ضيق تعمل على الآلة الكاتبة ، وقد ورثت من أبيها الطموح ، فانطلقت بخطوات صريخة نحو تحقيق أكبر آماني العمر وأحلامه . وأوشكت أن تكون زوجة للاستاذ الكبير لتسلط عليها الأضواء ، ونحنى لها الهامات قبل أناملها ، ولكن الزمن الساخر شاء أن يلعب معها لعبة الثعالب والسلم ، فإذا بها تنحدر هابطة في عنف وقسوة . درجات كثيرة إلى القاع لتبدأ الكفاح من جديد !

وحينما لقيتني لا شك أنها وضعتني في ميزان دقيق .

فانا - وإن لم أكن إلا خيرا اكتوبريا - مركزي محترم وأحمل شهادة عالية ، وأمامي مستقبل باسم يشر بالرقى العاجل والمنصب الرياس الكبير .

وعلى أية حال ، أستطيع أن أؤكد لك أنها حتى أبريل عام ١٩٣٩ لم تكن تفكر في أي شيء من ذلك .

وذاذ يوم - في أبريل عام ١٩٣٩ - على حين كنا نأكل أطباقا شهية من السمك المدخن ، في حديقة فندق سوكيه ، وكان علي

المائدة المحاورة عروسان تتشابك أيديهما في ود وصفاء - سمعت نفسي أقول فجأة :

- ما أولئك فيما لو عقدنا زواجنا ؟

وكانت المفاجأة بالنسبة لها شديدة غير متوقعة ، فبهتت لحظة ، وأصابها رعدة قوية كما لو مها تيار كهربى ، ثم ما لبثت أن انفجرت ضاحكة وهتعت في جمل :

- يا لها من فكرة رائعة ! ونسعد بالاقامة معا الى الأبد !

وظلنا في حديثنا الفكاهي نلرح وتعلقنا الساخرة حتى انتهينا من طعامنا وأوصلتها حتى باب المصحة : قد كانت بوبتها تبدأ من اثنية حتى العاشرة مساء . ثم عدت الى غرفتي ، واستغرقت في قراءة كتاب في الاجتماع وتناولت عشاى في غرفتي .

وخرجت من الفندق في العاشرة ، وفي العاشرة والرابع تماما كانت قد وصلت شارع ( القومندان ماريا ) - وانتظرت حتى أخرجت المفتاح من حقيبتي يدها وكادت تضعه في ثقب الباب ، فبرزت لها من الظلام .

فقلت في هدوء : - أوه ! أهذا انت ؟

- شعرت بأنى فى حاجة لأن أبادل معك حديثا جديدا ، فأرجو أن تسمحى لى بالدخول لحظة .

ولم تردد ، او تصطحف موقفا تميليا مسرحيا ، بل ادارت المفتاح في القفل بحركة طبيعية واعصابا هادئة وحينما هممت بالدخول أسرعت تقول :

- نصف دقيقة ، دعنى اطمئن الى نظافة المكان !

وسمعتها وهى تضغط على مفاتيح النور فى كل الغرف : لم وهى تلقى بمضى الثياب والملابس القطنية فى صيوان :

- تستطيع الآن أن تدخل .

وكانت النسقة توحى لأول وهلة بأنها كانت تؤجر دائما للنسوة من طراز خاص :

أثرقة الجفوس بها أريكة قديمة مملوكة ومقعطان وحائدة  
و « بوفيه » طويل من طراز هنرى الثانى ، والجدران تغطيها صور  
ورسوم بعضها غير محتشم .  
ولاحظت ما أصابنى فقالت موضحة :

— الساكنة قبلى كانت إحدى الراقصات فى ملهى ليلى وكانت  
مولعة بلمس صور الفلاف لبعض المجلات الخبيثة على الجدران .  
أشعر بالظلمة ؟

— كلا .

— ولا أنا ، وهذا أفضل ، فلست أدخر إلا قليلا من الشراب  
ربما لمد مذاقه .

— أكانت تعلم سبب زيارتى ؟ يحتفل جدا .  
قلت لها : كنا نتحدث فى أثناء تناولنا الغداء فى موضوع  
زواجنا .

— وكنت أحاول أن أفتح الموضوع بطريقة سهلة .

— ومنذ أن افترقنا وأنا أفكر فى الموضوع تفكيرا جديا .  
وكان ذلك حقا وصدا ، فلم أستطع تركيز انتباهى فى الكتابه  
الذى كنت أقرؤه .

— ولقد حضرت لاتبك باختصار اتى لم أكن هائلا ، وحيثما  
أدوت الفكرة فى كل اتجاه لم أجد سببا واحدا يقف فى طريقا  
لزوجنا ، فنسعد ونمرح كباقي المخلوقات .  
فقالت وهى مازال تضحك هائلة : ولم لا ، حقا ؟

— فكرى فيما أقول ! أن ما يعرفه كل منا عن صاحبه فى الأيام  
القليلة الماضية ، ليزيد كثيرا عما قد يعرفه أى خطيبين مضى على  
بمعارفهما عام كامل .

وصمت برهة ريثما التقط أنفاسى ثم أردفت قائلا :

— انصتى الى بربك ، لن أكتب عليك أو أحاول خداعك قائلًا  
أملك دور الحب المدنف المدله الذى يقلم قلبه فوق صينية من  
الذهب مثلما تقرأ فى الروايات أو تروى فى السينما ، كذلك أنا  
لست أوقع منك شيئا من هذا القبيل .

ونخالجنى احساس بأنها متوترة الأعصاب من طريقة ضحكها  
واستمرارها في صخريتها ،  
- قواج الفلاسفة الآن ؟

- بل رباط بين صديقين يحترم كل منهما الآخر ويسعد  
بلقاءه ويهنا بقربه ، زوجين يتعاونان على المعنى جنب الى جنب  
بقية الطريق !

وعندئذ بدا عليها الجهد والاهتمام .  
- يسعدنى ان اسمع ذلك يا آلين ، وانى لجد شاكرا لك .  
- لست ممن يهتمون بالجسد .

وقد أخبرتنى فيما بعد ، انها ضحكت طويلا لسماعها ذلك  
ونخاسة اللهجة والطريقة اللتين اتبعتهما وجفول بصرى حينما  
وقعت عيناي بالزغم منى على الصورة الكبرى المصقفة فوق الأريكة  
فقد هبطنا فوراً الى مواقع اقدامى خزيا ورعبا فى حركة طفلية .

ولم يحدث بيننا ما يحدث الحياء تلك الليلة ، او فى البالي  
التالية طوال الاسابيع الثلاثة التى امضيتها فى الرفيرا .  
وحين اقبلت تودعنى فى المحطة ، لم أكن قد تلقيت منها جوابا  
شافيا .

- سنرى هل احطنا بشعر بالوحشة والحنين للآخر بعد ان  
تفترق شهرا كاملا ؟

ولم اكتب لها خطانا كاملا طوال ذلك الشهر مكتب ببطافة  
يومية أشبه بنشرات الطقس كانت تحمل جملة واحدة  
« اليوم الخامس : ما زلت مصرا » .  
« اليوم السادس : ما زلت مصرا » .

وهكذا .. حتى التاسع والعشرين اما فى اليوم الثلاثين -  
لو كان يوم السبت - فقد ذهبت لاستقبالها فى محطة ليون ، ورافقتها  
الى أفخم الفنادق بميدان جراندد أوغسطين ، حيث حجزت لها  
غرفة .. غطو غرقتى .

وذهبتا - فى اليوم التالى - الى ( لوفيسينيه ) بعد ان

ظنرنا ملنا انها لن نسمع من أمي حرقا واحدا حتى لا نسته او  
نسيه فنهما .

وكان والدي في غاية الرقة والطف ، فهو هو الرجل الذي  
حنكته التجارب وعرقنا عنه النبل والشهامة طوال حياته الماضية .  
وعقدنا زواجا مدنيا في قلعة مجلس المدينة ، وقبل ان نعثر  
على شقة خالية للايجار .

وحينما اعلنت الحرب العالمية الثانية كنا لاتزال نقيم في  
الفندق نفسه ، وفي غرفتين متجاورتين هذه المرة ، بينهما باب  
متوسط ، جعلنا الغرفة الاولى للنوم ، ودفعتنا الفراش من الاخرى  
وامددناها لتكون غرفة جلوس .

ومرة اخرى ارتديت ملابس العسكرية ، وانطلقت للجبهة  
الامامية ، ولكني سمعت بمندبل حريري يلوح في الهواء فوق  
رصيف المحطة .

### الفصل الرابع

عدت مرة اخرى الى هندكشوت . الوجوه القديمة نفسها  
والحانات نفسها حيث تراق انهار من الجعة ، وكان هناك ايضا  
ضابط الحدود ذو الشعر الاصفر الذي سبق ان بشرنا بالسلام ،  
ولم تكن بلجيكا قد دخلت الحرب بعد ، ولم يكن مسموحا لنا عبور  
الحدود ذات الالوان الاسود والازرق والاحمر والتي كان جتودنا  
يتكئون عليها للحديث مع بعض المارين .

ومضت الايام والاسابيع في بطة السلحفاة على حساب  
اعصابنا المتوترة ، وكان جيش العدو يربط على الجعة الاخرى  
من خط ماجينو . يتبادلون الذعابات مع قواتنا من خلال أجهزة  
الصوت الكبيرة .

وحينما حصلت على اجازتي الثانية وجدت امك تنتظرني في  
محطة الشمال ، ولاحظت قبل مغادرتي القطار - انها حامل .  
وكانت ترتدي معطفا بني اللون تركت ازواره مفتوحة .  
ويبدو ان نهشتي كانت واضحة على محياي ، فبعد ان

إيادنا القبلات في صفت قصير : سألتني كي لهفة في وسط  
الزحام وضجة المستقبلين والمودعين على الرصيف : « أغاضبي  
أنت ؟ »

فصطقت على يديها التي كانت باردة كالثلج ، لم هزئت رأسي .  
وما كان من حتى أن أشعر بأي غضب أو دهشة أو استنكار :  
بالحمل ماهر إلا نتيجة طبيعية لكل زواج ، وكان ينبغي أن أتوقع  
حدوثه ، ومع ذلك فقد أذهلتني المفاجأة ، وأجست كأن لمة  
حيثما غامضا لم أستطع بينه مافتيء يضرب مؤخرة رأسي وكأنه  
مطرقة قوية تقرع بابا موصدا .

« سوف يكون لي ابن »

أما لماذا يكون ابنا وليس بنتا ؟ فذلك ما لم أعره  
وأقضيت أيام الاجازة الثلاثة في قنقنا ببيدان أوغسطين  
الأكبر ، فمت خلالها جريارة مؤسسة التأمين بشوارع لاقيت ، أطمئن  
أفيها على الأعمال التي كانت تمضي بإطراد كالعتاد داخل المكاتب  
أفي طريق سيرها المرسوم .

\*\*\*

لم أكتب شيئا أمس ولا أول أمس ، برغم أني أغلقت على  
نفسى الباب معتكفا ساعات طويلة في مكتبي استعبد في نفسى  
ذكريات تلك الحقبة من حياتنا محاولا مااستطعت ترتيب الوقائع  
أفي هدوء ، وكانت هناك حقة مفقودة هي التي حالت دون ربط  
ألحوادث بعضها ببعض مما سبب لي ضيقا شديدا .

وكنت أمل في إزالة ذلك الضباب الكثيف الذى يظلف ذلك  
القسم من الذكريات قبل أن أصجله في رسالتي ، ومع ذلك فقد  
مضى يومان وذهبت جهودى أفراج الرياح ، فأعدت قراءة ماسبق  
أن كتبه في تلك الوريقات القليلة الساقة ، وخاصة تلك التي  
عشر الى الأسابيع القليلة التي قضيناها في مدينة كان ، وخرجت  
من ذلك كله ناعما على نفسى .

\*\*\*

واليوم وأنا أعود للكتابة يخيل الى أن قبسا من فهم وأدراك

يتسلل إلى قلبي ، فيلقى حقائق من نور لمألم تسلم في تفسير  
ما أصابني يوم ذلك على محطة سكة الشمال الحديدية .  
سيكون لي ولد يأتي من بعدى ليحكم على ويزنتي بعيزان  
الحق فيقول مالي وما علي .

فأنا بنفسى حين كنت طفلا لم صبيا اعتدت أن أنظر إلى أبوى  
بمنظار الناقد الدقيق الحريص على إبراز السيئات والحسنات  
سجلا في ذاكرتى الواعية أدق الملاحظات ، ربما لم يكونا هما  
يلاحظاتهما ، فبهما أولى الإنسان من وهى وذلكاء فلن يستطيع أن  
ينظر فى مرآة نفسه فينقدها تماما ، فالقريب من الشيء لا يعرف  
أبعاده كلها ، إنما الذى يستطيع أن يرى العيوب بجلء هو الذى  
يراه من بعيد وبعد سنوات عمر !

وإنها قصة قديمة تتكرر كل جيل ، الأبناء يرقبون الآباء ، كما  
أن كان هؤلاء يراقبون الأجداد !  
قرأت ذات مرة عبارة لأحد الكتّاب : أن إنشاء صورة منا  
وأرواحنا تحدث على السنتهم !

وأظنه يؤمن بقضية تناسخ الأرواح القديمة ويعتقد أن أرواحنا  
نتنقل فى مدى مائة عام ، من الأب إلى الابن إلى الحفيد ، تؤثر فيهم  
إلى أعماق نفوسهم ، بظل الحفيد يذكر ما يقوله الأب عن الجد  
ويراه بعين الخيال يتحرك أمام بصره حتى إذا ما صار الحفيد أباً  
اندثرت ذكرى الجد واختفت بين طيات النسيان وأصبح أسطورة  
قديمة بين الحكايات والأساطير ، وهكذا تمضى الأجيال موجة بعد  
موجة كأمواج البحر تأخذ الصاعدة من الداهية ، وتعطى الصاعدة  
ما يجيء بعدها إلى آخر الزمان .

هل قرأت من بين دواستك فى اللبسيه - كما فعلت فى أيامي -  
تلك القصيدة الرائعة التى خطبها الشاعر يبرانجيه اسمه ، والتى  
ما زالت محفورة فى ذاكرتى عن تلك الجدة العجوز التى ران نابلون  
حيثما كانت بعد طفلة ، وهى تحدث حفيدها عنه - الجيل الثالث ،  
وكان الحفيد يتخيل أنه يرى الإمبراطور ممطيا صوته جسوده  
ممتشقا سيفه !

وحينما يكبر الحفيد الطفل وتموت الجدة الطيبة تختفى تلك الصورة ولا يعود البطل الفارس الا مجرد تابوت يرقد تحت قبة الانعاليذ يتحدث عنه التاريخ !

مائة عام وبعد ذلك تنمحي كل ذكرى عن الآباء والاجداد . .  
والمسئول من الامساك بطرف اول خبط يا ولدى هو الابن !  
سيكون لى اذر اين ، سيتحدث عنى لأولاده بما انطبع فى ذهنه ذاماً او مادحاً .

وكانت امك ايضا من بين معادى او ربما قضائى ، ولكنى انا ايضا بدورى - كنت وما ازال قاضيتها ، فنحن متساويان فى الأخطاء . هى نمرق نقط ضعفى ، وانا اعرف نقط ضعفها ، وبحانب ذلك بعد رف حسمى العارى الصيف فوق فراش مرص بالمسحة .  
وانى لاسأل الآن دور ان اصل الى اجنبة حاسمة : هل كنت اتزوجها او تتزوجنى لو ان ظروفنا وقت ذلك قد تغيرت او لم يوجد اصلاً ؟



كانت ولادتك فى تلك الغرفة التى خصصناها لثمننا فى فندق ميدان اوعظمى 'الاكبر' ، فى الثانية صباحاً ، ولقد لاقت الخادمة هناك كبيراً فى العتور على احدى القناتلات فى تلك الساعة حتى تخرجك الى اسور - كلا بل يجدر بى ان اقول الى الظلام ! كانت باريس كله فى حالة اظلام تام لسبب الحرب التى استمر اوارها ؟ ولم يكن بخارج وقت فى « هندكسوت » بل اتسحبنا بعد انهيار ذلك الخط المسع « ماجيبو » وبدأ الناس فى باريس وقد نطكهم الرعب بهاخرو - منه 'ورافات ووجدانا .

ولم اك - سوى جندياً - مطلا وفى الوقت نفسه لم اك جنائياً ، فلقد ائت واجبى قدر جهدى وبدلت غاية طاقتى فى القتال . ومع ذلك بعد اضطرت ذات يوم ان اترك مكانى فى مقدمة رجالى وانهمم - وكان اغلبهم قد خلف ملاحه وراء ظهره - نجرى هاربين ما استطاعت اقدامنا ان نحملنا الى جنوب نهر السين لم من بعده الى اللواتر .

اختلط المديون بالجنود فى قوصى ضاربة اطنابها : جموع



حاشدة لا تعرف فيها الحابل من التابل ، تبحث في ياس وفرع  
من ملاذ لها من عشرات الآلاف من طائرات الأعداء التي كانت تصب  
هلينا حممها ، وتحصدنا على قرب شديد بعدافعها الرشاشة فوق  
رءوسنا وكأنها ترش أحد الحقول بقاتل للحشرات ! .

وكنت وقت ذلك أتوقع مولدك ، ومع ذلك فلم أسمع به إلا بعد  
شهرين كاملين حينما استطعت أن أحصل على نصاب مدنية في  
( أنجوليم ) وتسللت عائدا بمفردي متكررا الى باريس .

لم أقتل في الجبهة ، ولم أجرح أو أقع في الأسر ، كما حدث  
لأغلب جتودنا ، بل عدت سليما معافى الى مكتبى في شارع لافيت  
ومضيت في عملي المعتاد مرة أخرى .

وكانت نعمة أماكن عدة شاذرة وخاصة بين وظائف مجلس الإدارة  
التي كان يشغل معظمها اليهود الذين فروا كالجرذان المرعوبين  
وغادروا باريس قبل أن يدخلها هتلر وجيوشه ، ولحقوا الى المنطقة  
الحررة ، وذهب بعضهم الى انجلترا أو أمريكا !

ووجدت نفسى كفرنس الشطرنج انطلق مدفوعا للامام . وولدت  
فرجتين مرة واحدة ، وانتقلنا الى شقة مفروشة بأحسن الأثاث  
وأفخم الرياش بحديقة ميدان مونسترو استوليت عليها بما يشبه  
الملكية ، وكانت نخس أحد المدبرين واسمه ليفي ، هرب من باريس  
ودهب الى البرتغال في انتظار دوره ليستقل باخرة الى نيويورك  
مفضلا أن يحتل أحدنا شقته قبل أن يستولى عليها الألمان .

وظللنا نقيم بها حتى انتهت الحرب ، وبعد أن انتهت نعام كامل  
لأن ليفي لم يعد إلا في عام ١٩٤٦ ، وفي الحق كان ذلك أول مكان  
شيببت فيه وأمضيت فيه طفولتك .  
ولم تكن طفولة سهلة ميسرة بالنسبة لك يا ولدى . وكان ذلك  
أشد ما يزعجنى . .

وما فائدة هذه الأوراق ان لم أكن معك صريحا ؟  
شهدنا تلك الأيام حمرمانا كاملا من كثير من الضروريات ،  
وانطلقت أمك تكذ وتشتقى وتنفب عن كميات اضافية من الطعام ،  
لكننا نخشى عليك أن تموت من سوء التغذية ، أو تتجمد من شدة

البرد والصقيع ، فقد علمت وسائل التدفئة ، وصرتا نبيت في الظلام أغلب الليالي ، لا يطمئن مخلوق على نفسه من الاعتقال أو التلميع أو الموت رميا بالرصاص ! ينتزعون الآباء من بين أسرهم وذوي قرابتهم ثم يسوقون الأطفال والنساء إلى غرف الغاز حيث يعلعون أو لا يعرف مصيرهم أحدا .

وكنتم أرقبك وفي قلبي خوف عليك .. تنمو وتحبو في ذلك الجو الغريب المحيط بك والذي لا يخصنا ، فتلك المسور على الجدران كلها لأسرة ليفي التي لا نعلم عنها شيئا : أجداد وعمات وخالات وأبناء لا يمتنون لنا بصلة أو علاقة كنت أحمل لهم في أهما في كرها شديدا .

وكان الطابق الذي نشطه من الفخامة والروعة بحيث لم يكن لي وسمي أن ادفع أيجوره لو كانت الظروف طيبة ، ثلاث غرف فسيحة مؤنثة نائيا فاخرا من القطع الثقيلة النمشة والطنافس العجمية تغطي كل شبر من الأرض الخشبية اللامعة وغرفة الطعام التي تتسع لعشرين شخصا .

— حذار يا جون بول ! لا تلوث هذا القعد أنه لا يخصنا !  
وفي الحق ، لم يكن في ذلك المسكن ما يخصنا سوى حاجاتك أنت يا بني ، فقد كان من المتفق عليه أن نسلم كل شيء بالمسالة التي تسلمناه عليها ، فلم تبدل شيئا أو نحرك من مكانه حتى الأوراق التي كانت بأدراج المكتب لم المسها ! .

وكانت لدينا وصيفة — فرناند — هل تذكرها ؟ لقد تركتنا بعدا لفترة من الوقت لتتزوج كهريا .. كانت تضي أغلب أوقات الأصيل معك جالسة على أريكة في إحدى الحدائق ترعك بمبنيها ، فقصا كانت أمك لكثرة مشاغلها في تلك الأيام لا تكاد تجد لحظة واحدة من الفراغ حتى تهتم بك .

هل تدهش لو أكدت لك أن هذه الأيام في حياة أمك كانتا بالنسبة لها أياما ذهبية وأجمل فترات حياتها الزوجية ؟  
وما كنت أكاد أشعر بالحرب في غمار مشاغلي بشارع لايفتش ، إذ تضاعفت مسؤولياتنا لتلك الظروف الطورثة وقلة الموظفين العاملين الذين نقص مددهم إلى الثلث !

ومع ذلك تعجب إذا أدركت أن عمل الخبير الاكتواري في شركة التأمين قد ازداد أهمية وتعقيدا بسبب الحرب ، فقد كان علينا أن نعيد تنظيم كل أرقامنا وتقديرنا لتساير حوادث القتل التي كانت تكثر بنجائيات السرقة كرها والهلاك جوعا أو بردا أو خوفا وتلقا بالسكتة القلبية أو نزيف المخ وغيرها من أسباب الموت المفاجيء بخلاف حوادث السلب والنهب والاتلاف والحرائق التي كانت تشب دواما في كل مكان دون أن تصل لغرفة فاضل لها أو سبب معقول بالإضافة الى مئات الكوارث الأخرى التي لم يرد لها ذكر في بوالص التأمين القديمة لما قبل الحرب ، وكل ذلك كنت عنه مسئولا ، وإي خطأ في التقدير يسبب للشركة خسارة بلايين الفرنكات .

وكانت الحرب - بالنسبة لوالدك - تعني شيئا آخر أكثر أهمية ، وما يشغل بال كل أم مسئولة عن بيتها عادة ، هو البحث عن طعام يمسك رمق الأسرة ويبرد عنها غائلة الجوع ، ولئى سبيل ذلك كانت تتحمل مشقات كبيرة فى الانتقال الى الريف والقرى المجاورة لباريس حيث تلقى هوانا شديدا فى المساومة والشراء .

واكتشفت فجأة أنها كانت تمارس ولبضعة أسابيع دون علمى نشاطا آخر يختلف فى نوعه عن مجال البحث عن الطعام لنا . فعلى اثر عودتى من عملى ذات مساء انخبت عليك اطبع قبلة على جيبك الصغير ، فلاحظتها تحدجنى بنظرة حادة ، كما لو كانت تريد أن تنقل لى رسالة سرية وفى قفلة منك رفعت سبابتها الى لففتها محفورة حتى لا تشعر أنت بما يدور !

وبعد ذلك بلحظات اتحت بى ركننا بعيدا فى غرفة الجلوس التي لم تكن نستعملها لافتقارها الى وسائل التدفئة ثم همست لى قائلة :

« ابتعد من حجرة النوم الخضراء »

وكانت غرفة مهجورة خالية ، لم نستعملها قط لما كان لى حاجة الى لدخولها فحملت فيها مشدوها ، حتى اسمع منها تفسيرا »

— بداخلها رجل وأرجو ألا يعرف جان بول من ذلك شيئا .  
وشعرت بدوار شديد فتعاسكت وأنا أقول :  
— من هو ؟

— انسان يبحث من مكان آمن يختبئ فيه لبضعة أيام .

واعندما بعد ذلك أن « تستضيف » عدداً من الناس بعضهم  
يمكث ليلة واحدة أو أسبوعاً بيتنا ، ولم اشاهدهم قط إلا حينما  
وقعت عيناى على أحدهم مصادفة ، فسارع بإغلاق باب غرفته فى  
وجهى . .

— بحسبك أن تجهل كل شيء عنهم حتى إذا ما ستجوبوك  
أنكرت صادقاً ، وضميرك مرتاح !  
— وفرناند ؟

— لن تقول شيئاً كل ما يهمها هو الحصول على المال . وأنا  
أدفعه لها بخاء .

وكاتب أمك يقوم برحلات كثيرة لم تحظى بها علماً ، وإنى  
لأذكر أنك حين كنت فى عامك الثالث ، سألتنى ذات مرة : لماذا  
تكثر مامى من الغياب فى هذه الأيام ؟

وكانت بحسبى عنى تحركاتها أحياناً — لا لفقد ثقتها بى — بل أنا  
أعلم يقيناً أنها كانت تحرص على أن تتجنب توريطى فى أسرار قلد  
تعرضنى لو اندمجت فيها للرعى بالرصاص ، كانت تهتدق الى  
التقليل من الخسائر فى الأسرة ما استطاعت ، فلقد بدأ عهد  
الارهاب . ونشط الجمستابو فى التعذيب والاستجواب ، فأصبح  
الانسان مهدداً فى حياته وماله لا يأمن أن يظل من نافذة أو يخرج  
من الباب !

ومع ذلك ، كانت تلك المحاطر والأحوال أحب الأشياء الى قلبى  
أمك ، فقد وجدت الميدان الذى هو به فؤادها .

ولذلك السبب قلت لك أن هذه الفترة ربما كانت من أسعد  
أيام عمرها فى حياتها الزوجية .

فكل منا مهما كان مركزه فى المجتمع وضعياً كان أم رقيقاً :  
يتمنى أن تكون له أهمية فى بعض النواحي ، حتى يشعر بقيمته بين

الناس ، ويحقق بعض احلامه وآماله !. الا ترى ان السبب الاكبر فيما يمر فيه العالم من اضطراب وقلق نفساني هو افتقارنا جميعا الى تحقيق ما يدغم خيالنا ويحقق احلامنا وبميد الثقة الى نفوسنا ؟ ما احوجتنا جميعا الى التجرد من عالمنا المادي القائم على المصالح الشخصية والبحث من المثل العليا في عالم الروح !

قد تمام من هذا الحديث الذي يبدو كأنه محاضرة فلسفية جامدة ثقيلة عن نفسك ، ولكنني اذكر ذلك كي تفهم الكثير من والدتك التي خاطرت بنفسها وجازفت بالتشويه والتعذيب والموت من اجل تحرير فرنسا من اعدائها في اشد الظروف قسوة وربما . ومنحوها لرفع الأوسمة عام ١٩٤٥ ، تقبلته في هدوء وبلا ضجة ، واستحقته من جدارة وإيمان .

ولكنني فقدت زوجة كما فقدت أنت أما في غمرة تلك الأحداث . معدرة يا ولدي اذ اذكر لك ذلك ، ولكنها الحقيقة المؤلمة التي لا ريب فيها ، فلقد خرجنا من الحرب ونحن على طرفي نقبض ، ولم تعد الحياة المنزلية وواجبات الامومة تروق لها بعد ذلك النشاط الكبير والحماس العظيم ويخيل الي أنها كرهت ان تحبس نفسها بين جدران اربعة .

لقد وقع كل منا في الخطأ نفسه حينما تصورنا ان ذلك النوع من الصداقة يصلح ان يكون اساما كافيا للحياة في عش واحد . وقعنا في ذلك الخطأ حين كنا في مدينة « كان » في جو مثير من المرح والاحلام .

ولست الزمها او احملها بجملة ما حدث . كذلك لن نستطيع هي ان تفعل ذلك ايضا .  
ثم اين هو ذلك الصديق الذي يدوم لك وللأبد ؟

فالانسان منا يبدأ حياته بأصدقاء الطفولة في المدرسة الابتدائية ولا يكبت حتى ينضج آخرين جددا في المدرسة الثانوية سرعان ما يحل محلهم غيرهم في الجامعة . وهكذا يقفز في حياته عشرات وعشرات في اثناء حياته العملية الاولى وفي متوسط العمر ، ثم حينما يتقدم به السن نحو الشيخوخة .

تركب القطار من أول الخط ، يصعد البعض ويهبط آخرون ،  
يتعلقون في شتى الاتجاهات . . بعد أن يلوحوا لك بأيديهم مودعين  
وسرعان ما يبتلعهم الظلام !

ولا أعرف أحدا - من بين من عرفت أو سمعت - احتفظ بنفسه  
الاصدقاء لمدة عشرين أو ثلاثين عاما ، ولا أذكر أولئك الذين يتلاقون  
مصادفة كل عامين أو ثلاثة فيتصافحون في حرارة ويتعانقون وهم  
يتبادلون ضرب الأيدي على الأذرع والاكاتاف يستعيدون ذكريات  
الماضي البعيد السعيد .

ولو أن رجلا مثلي وله مثل مواهب وصفاتي منذ عشرة أعوام  
لكان من المحتم أن يتغير ذوقه ومزاجه ويتطور في عاداته وطباعه  
خلال تلك الفترة من الزمان ، وأنا نفسي قد تطورت أيضا في هذه  
المدة وغدت شخصا آخر يختلف تماما عن الأول ، انطلق كل منهما  
في طريق آخر مخالف ولا شبه بينهما إطلاقا .

وليس أطيب للقلب وأجمل للنفس من أن يتاح للإنسان أن  
يتقابل مع صديقه ، في الوقت الذي يريد ، ومتى يحب . . أما أن  
تلقاه أمامك وقتما وحيثما لا تتوقع أن يعاينك في لحظات ضعفك  
وجبنك فذلك مالا يحبه مخلوق ، فهل يمكن أن يتطابق ذلك على  
الصديق من الجنس الآخر ؟ طالما فكرت في ذلك ، وما زلت أعمل  
حتى هذه اللحظة بالرغم من أنني - منذ مائة عام ١٩٢٨ -  
لم أضع ذلك تحت التجربة والاختيار ، ومع ذلك فأنا أؤمن بأن الحب  
عامل هام ، لا يمكن الاستغناء عنه في تشييد وإقامة ذلك الصرح  
الشامخ ، فهو يعني أن الزوجة أو الزوج يدوب ويقف في النصف  
الأخر ، ويصبحان فردا واحدا وجسما واحدا إذا اشتكى منه عضو  
تداعت له سائر الأعضاء .

واجد نفسي مضطرا لأن أضيف هنا شيئا إلى مذكرته عن أبي  
وأمي ، وهو ثقتي المطلقة في أن ما بينهما كان حبا جوارفا حقيقيا إلى  
الحد الذي جعل أبي يعمل الحياة بعد مماتها . بيد أنه مثل أماننا  
متسع من الوقت حتى أحدثك عن ذلك فما زلنا في جيلنا أحدثنا  
عن نفسي وعن والدتك خاصة ولم أكن اعتقد حينما بدأت ، أنني

صافىض كى ذلك على خير ما توقعت مما يضطرني لان استسلم  
حتى النهاية .

وانا أجد - فى صومعتى - ملاذا فى الابتعاد عن لا أحب من  
الناس واجد فيها جنة أحلامي .  
وامك - بنورها - تجد ملاذا فى نشاطها الدائب .»

وربما ظن اصدقائنا فيها الطموح ، وانها فى الحق كذلك فلم  
يعد لديها طيارون انجليز او أعضاء للمقاومة السرية ، تمد اليهم يد  
العون والمساعدة ، ولم يعد لديها رسائل هامة او قنايل تحملها فى  
صلة الخسراوات ، كذلك لم تكن لها موهبة الكتابة مثل شقيقتي  
بحول اليها طاقتها المشحونة .

وكان اول ما حققته من امانيها ، هذه الشقة بشارع ماكماهون  
التي اشترت اناها الفاخر بنفسها واشرفت على تنسيق كل قطعة  
فى ارجائها مع عمل الديكورات الفاخرة ، ثم استقبال الناس من  
لدى الحبيبة والمناصب الخطيرة ، فهي لم تنس قط تلك التكتلات  
التي تهرعت فيها وشهدت فيها طفولتها بمدينة نيس ، او اسفل  
والديها المتواضع البسيط .

وهي لاتزال فى طريقها للصعود نحو القمة ، ولستوفى يخيب  
املها فيك ان لم تجد حدودها فى لرفاء السلم حينما يحين دورك  
آت ايضا .

وارجو ان تضيف الى مذكرات ذلك القراء الثمين الذى اشترته  
اخيرا والذي يساوى وحده نروة طائلة ، والمطف الانيق الذى  
سبقه ، واول سيارة خاصة فرحت بها ، وكذلك اول مرة دخلت  
اقبها محلا للمجوهرات فى زهو وكبرياء .

وربما تغير وجه التاريخ وصرنا اصدقاء حالا لو كان زواجنا عن  
حسب بدلا من ان تفقد تلك الصفة التجارية ، او زواج الفلاسفة كما  
سبق واطلقت نفسها عليه ذات يوم ، عندئذ فقط كنت اشعر بان  
كى شريكة العمر ، وكنت تجد فيها الام التي تفهمك .

سامحنى باولدى ،انا مضطر لان اذكرك هذا ، وارجو الا اكون  
قد اسأت اليك .»

قبل أن أبدأ كتابتي هذا المساء ، قضيت أعيدي قراءة ما كتبت  
أخيرا ، فسمعت بالكثير من الالتم وعدم الإرتياح وكأني قد ارتكبت  
جسما ، واوشكت أن أمزق الأوراق كلها .

كنت أحاول - بلا ريب - أن أسجل انطباعات نفسي بين  
السطور لأزيع عبثا ثقلها من قلبي وعصري ، وأكاد أشعر بأنني أكتب  
لنفس أكثر مما أكتب لك ، وربما خطر لي - بمجرد أن أنتهي من  
برسالتى - أن ألقى بها في الموقد طمعة للنيران .

أتراني فاعل ذلك ؟ لسوف نرى .

وان أمك لنبدو - رغم تجاوزها الثامنة والأربعين - أصغر  
من ذلك بكثير « بفضل حيويتها وروحها المرحية ومينبها اللامعنين »  
وهي ما تزال موضع حسد وغيرة من جميع الشابات الصغيرات .

فهي ليست كغيرها من النساء ، ممن يفقدن رشاقتهن بعد  
الزواج ، بل أن جسمها يزداد حسنا وجمالا بمضي الأيام ، ربما كان  
ذلك لأنها تنتقى أروع الثياب وأكثرها تناسقا ، أو ربما لأن السنين  
قد زادت خبرة ومروانا باختلاطها بالبريسبات اللاني وابن الكثرة  
وسمعن الكثير وتعلمن الكثير أيضا . .

وهي لا تختلف من والدته صديقك - زابو - التي قد تجاوزت  
الأربعين بمدة أعوام ، ومع ذلك فما زالت معبودة الملايين من عشاق  
فنها الذين يرون فيها النمل الأعلى للرشاقة والجمال .



أصبح عبد الميلاد على الأبواب والمدينة قائمة على قدم وساق  
وكانها قد أصيبت بالحمى ، فأتولر النيون المونة تضيء وجهات  
التاجر الكبرى تظهر وتختفي ثم تعود فتخطف العيون في حلقها  
ورسوم رائعة تحمل الاعلانات التي تدعو الجماهير للتبذل على  
التراءد ، وبدأت المسارح ودور السينما تقدم أقوى المسرحيات  
وأروع القصص ، والناس من جميع الطبقات يكادون يطرون من  
هدة اللفة والسعادة ، وازدادت نوافذ الدور بثوب تشيب من  
الضياء الباهر ومكانها يتأهبون للاحتفال باليلة الخالدة .

وكان كل زملائي بالمكتب يتحدثون عن الهدايا وابن يقضون



السهرة المرتقبة حتى الصباح ؟ وكنت قد انتهيت بدورى من اعداد  
الإحصائيات عما تتوقع حدوثه من حوادث القتل والمصادمات  
والحرائق والانحلال .

وسوف يحتفى بعيد الميلاد مثل باقى الناس ، وسنقيم شجرة  
الميلاد ، شجرة متواضعة مما يناسب الكبار . فقد كبرت ولم تعد  
طفلا تستهويه المصابيح الكهربائية الملونة ولا القطر الكهربائية .

وكنت قد طليت متى فارتيا بخاريا ، وسوف اشتريه لك ، وثلاث  
مروت فعلا عقب خروجى من على هذا الاصيل بالتجر الخاص .  
ودفعت ثمنه مقدما ، وسيكون تحت تصرفك فى الرابع والعشرين  
من ديسمبر .

وسوف اقدم لوالدك قرطا من الماس يتفق طرازه مع عقدها  
الثلثين .

وحين كنا فى لاروشيل عام ١٩٢٨ كانت الدنيا بأسرها تحتفل  
بعيد الميلاد ، ماعدا أسرة لافرنسوا .

اما اليوم - فقد منحونى هديتى ، هدية مؤسسة التامين التى  
أعمل بها ، ولم تكن فى هذه المرة مطروفا يحتوى على مبلغ من المال  
أو صندوقا من السجائر غالى الثمن ، بل اضطرونى الى تحرير أقران  
بكاذب مزور حتى أحصل على تلك الهدية مما أفسد سرورى  
بها .

وهل ترانى كنت أشعر بالسعادة والسرور لحصولى عليها لولا  
تلك المأساة أو السحابة التى تظلل الماضى البعيد ؟ .

ربما .

كانت الساعة الثالثة حينما أخبرونى بأن المدير العام يريد أن  
يرأتى فى مكتبه ، وهو رجل مهم جدا ، نخشاه جميعا فبين يديه  
مصابير الآلاف من الموظفين والمفتشين ، ويحتفظ دائما بأقراص  
التنترين فى درج مكتبه ، وفى جيوب سترته ومعطفه فهو مهذب  
بالبذعة الصفوية فى أية لحظة .

وحين يتناول طعامه فى لرقى النوادى والمطاعم ، أو يدمى لبعض  
الحفلات أو السهرات الرسمية ، لا يقدمون له الا أبسط وأخف

أنواع الأطعمة التي حلدها له الأطباء يتناول منها القليل جدا كأنه  
صغيرا .

وربما كنت أنا الوحيد الذي يعرف لماذا يحتفظ بذلك الشراب  
الأتيق ذي الطرفين المفتولين والمرفوعين لأعلى والذي يتحول  
سريعا من الاسم للأبيض ، ذلك حتى يقصر المسافة بين أنفه وشفتيه  
العليا ويخفي بهذه الطريقة رقعة وطيبة في علامحه ، فبعون ذلك  
الشارب «المهيب» الذي يرتعد لرآه جميع مرءوسيه . تراه شخصا  
هاديا مثل عشرات الناس ممن تقابلهم في أي مكان .  
— اجلس ياسيد فرائسوا .

وتغلي جدران مكتبه لوحات زيتية تمثل المديرين السابقين  
يأتون إلى على حسب ترتيب وتواريخ وجودهم في مناصبهم ، وحينما  
يلعب — ذات يوم — سوف يضيئون صورته في المكان المناسب .  
وكانت أصابع يديه طويلة والجلد الذي يكسو اليدين به يقع  
إسوداء لاسر الناظرين .

وحده أزدار منرتي بنظرة ذات معنى . . ثم قال :  
— إذا لم أكن مخطئا في ظني فانت لم تتقدم بعد وصام « اللجئون  
دونور » .

فهزئت رأسي .

حسنا . . سوف نعوضك هذا التقصير فانت جدير به ،  
وسيكون اسمك — إذا ما صدف خلصى — ضمن قائمة من سينعم  
عليهم في العام الجديد ، تلك هي هديتي اليك بمناسبة عيد الميلاد ،  
لقد كنت أتناول منذ برهة وجيزة الفناء مع وزير المالية الذي  
يجيب أن لديه لحسن الحظ بعض الأوسمة والقلادات الباقية .  
وسألني : هل أعرف من يستحق شيئا ؟ . وأذ كنا في الجامعة معا  
وثمة صلة قرى بعيدة بين زوجتي ، قلن تجد نفسك مضطرا إلى  
اتخاذ الشكليات المعروفة المعتادة وما عليك إلا أن تملأ هذا النموذج .  
وأشار بسبائته إلى ورقة مطبوعة بها امكنة خالية للأجوبة كانت  
على طرف مكتبه .

— أعدا لي فوراً وقبل تهنتي الحارة .

وهو — بنفسه — يحمل تبيان الاستحقاق من طبقة فارسي قهل  
لرأه يستحقه بإخلاص ؟ وهل هو يعتقد حقا أني استحق ذلك ؟

الوسام من جدارة ذون باقى المواطنين الذين ادوا للوطن اجل  
الخدمات واكبر التضحيات ؟ وهل يعتقد ذلك الوزير الاحمق الذى  
يرغب فى بعثرة بعض الائمة التى بقيت فى مكبته - ذلك  
ايضا ؟

الى لاتخيل ماحدث بالضبط فى تلك الادبة : الوزير على راس  
المائدة ، والسيد المدير يجلس عن يمينه ، ويبدو أن الاول قد  
اقرط قليلا فى انواع الشراب حتى مال على المدير ضاحكا وهو  
يقول :

- وعلى فكرة يا هنرى ، لا تدهش اذا اخبرتك انه مازالت لدينا  
بعض النباشين لم توزع بعد ، فقد تبين اننا قترنا قليلا فيما يبدو  
ونحن نكتب القوائم والكشوف .. اريد شيئا منها ؟

ويطرق المدير براسه قليلا يستعيد فى ذاكرته اسماء مرءوسيه  
ولسبب ما يتذكرنى ، فيرفع راسه وهو يقول :

- اجل ، خبيرنا الاكتوارى ، سوف يسمده كثيرا لو حصل على  
« اللجيون دونور » .

ترى ؟ لو كان قد ذكر له اسمى .. انما كان الوزير يقطب حاجبيه  
متحذلا :

- هل هو احد اقارب فيليب لافرنسوا ؟

لقد كانا يلفان عمرا اتاح لهما ان يسمعا بذلك الحادث القديم ؟  
ولا اعنى انه يقف عقبه فى مسجل تكميمى ، فلم تكن لى - بذلك  
الموضوع - اية علاقة من الوجهة الرسمية .

ومع ذلك فهانذا اجد نفسى مرغما على التوقيع على اقرار مزور  
اكاذب !

فمنذ ان ابى احد الصحفيين قبول وسام « اللجيون دونور »  
الذى منحته اياه الدولة ، ورفضه باباه وشعم ، واماده بطريقة غير  
مهذبة دلت على شدة احتقاره له ، مما اخرج الحكومة ووضعها فى  
مركز ذقيق ، منذ ذلك الوقت - وقد مضى عليه عشرون عاما -  
والدولة تشتترط فيمن ترشحهم احدى الجهات للحصول عليه ؟  
ان يقدم طلبا موقعا عليه منه ، يؤكد فيه مبررات الاستحقاق .

وأنا لم يقتصر دورى على أنى ملأت نموذجاً ووقعتته بأعضائى  
لحسب الحصول على وسام لم يخطر قط ببالى أو أفكر فيه ، بل  
استكسبوى أقراراً بعدم سابقة مثولى أمام أية محكمة جنائية .

وليس فى ذلك الأمر ما يرضى للعقاب أو يوقضى تحت طائلة  
القانون ، ومع ذلك ، كان ذلك فى نظرى أنا شخصياً كذباً وزوراً  
وبهتاناً ، فقد كنت أستحق سوعن جدارة أيضاً - أن أحاكم ذات  
يوم أمام محكمة الجنایات !

ربما كان إيمانى ضعيفاً ، ومع ذلك فلا أمك الا الشعور بالغيطة  
تضمحل حناباً قلبى كلما سمعت أجراس الكنائس يتردد صداها .  
والسعادة نهر لياتى حينما أرفب مواكب الكرنفال والناس يرتدون  
الثياب التقليدية ويرقصون ويمرحون ، كذلك أسمع بانفى زهوا  
وكبرياء . وأنفج صدرى عزة وقوة حين نقع عبتاى على جنود  
الجمهورية فى الاستعراض الكبر تهتز لهم الأرض وهم يدقونها  
بأحذيتهم الثقيلة على اصوات الطبول وأنغام الموسيقى !

وطالما زهدت اذنى - صبيحة كل احد - الى نواقيس كنيسة  
القديس مرديناند فى الجهة المقابلة من الميدان ، وأشعر بما يشبه  
الفيرة وأنا أطلع من النافذة فالبح جيراننا وقد تابطوا أذرع نسائهم  
وامسكوا بأيدي أطفالهم ، الجميع فى أبهى زينتهم وهم داخلون  
أو خارجون من الكنيسة يلوح البشر وعلامات الرضا على وجوههم .  
فلست اذن جامد الشعور بلبد العاطفة ، بل ان بين صدرى  
ضميراً لا يكف من تذكىى بذلتى ، ويؤرق نومي ، ومع ذلك فلا  
أستطيع أن أرفض ذلك الوسام من أجل أمك حتى ترقع رأسها  
ومن أجلك أنت أيضاً يا ولدى .

وأهلك لم تسمع بعد أننا ستقيم بعد أيام قليلة وفى عيد رأس  
السنة حفل استقبال كبيراً ، سوف يحضره نحو اثنى عشر رجلاً  
من كبار القوم والشخصيات الالعة لمناسبة منحى ذلك الوسام  
وسترى ديزيريه كبير الخدم بمعلم بوتيل وشابو مرة أخرى ، وهو  
يدفع أمله العربية الفضية الكبرى التى تحمّل أطباق المشويات  
والأكواب البلورية وصال الحلى والبتي فور !

هل تذكر أنك - حين كنت صغيرا - ولقموه بصديقك العظيم؟  
لأنه كان يحتسب الخطأ نحو غرفتك من وقت لآخر حاملا اليك بعض  
ألوان الحلوى وصنوف الفطائر؟.

كان ذلك في الماضي أما الآن فسوف تقف على قدميك معنا  
وقوف الند للند طويلا رقيقا ، بيد أني أخشى أن يملكك الخجل  
والاضطراب ، فهذه هي المرة الأولى التي نسمع لك فيها بشهود  
حفل استقبال ، وربما لم نعرف مكانك جيدا بين هؤلاء القوم ، وأنت  
لديك بصرك فيهم وفي أنا أيضا ، وفي نفسك انطباعات قد تبدو في  
هينك . ولن يستطيع تفسيرها أحد .

اتراك ستصغى بالحفاة والنزق حينما تتراني اعانق المدير العام  
باعتباره عرابي وكفيلي ، فقد جرت العادة أن يكون لكل من يحتفل  
به من حاملي اللجئون دونور لأول مرة هرايب مثل اطفال المسيحيين  
حينما يصعدون في الكنيسة ، وهل ستخبرني حينما تسميني  
القى خطاب الشكر بقدر مائمه ذاكرتي ، وأنت تعلم أني لا اكره  
شيئا في الدنيا مثل الخطابة ؟.

وقد حصل زوح عمك ، فاشيه على اللجئون دونور أيضا ولم  
يأته عوا أو صدقة كما حدث لي - وذلك حق - بل كأمح طويلا  
وبرر اسمه في الأوساط الأدبية قبل أن يستحقه ، بل أنه لشديد  
فقه في نفسه ، كان يعلم أنه سيناله بكل تأكيد قبل ذلك بأربعة أو  
خمس أعوام على الأقل ، فهو من ذلك الطراز من الناس الذي يقدر  
سلفا كل خطوة يخطوها .

وهو قد بدأ أيضا من أول الدرج : كان أبوه شرطيا برتبة نفس  
وأمه حائكة نايب ، ويقطنان ضاحية فتيلي بالقرب من لاروشيل ،  
وهي مجموعة من البيوت المتواضعة ذات الطابق الواحد تقطنها  
أكتبة المصانع والمعلمون وعمال السكة الحديد وعجائز النساء ممن  
يتكسبن من إعطاء دروس البيانو والموسيقى ، وأذكر أني زرتها في  
صباي ورايت الرجال يعملون في حدائق منازلهم الخلفية . وتسلوهم  
يشركون من فوق الحواجز والأسوار .

لأنحسبني أحقر الطبقات الدنيا ، أو أحط من قدرهم ، على

المعكس، اننى لاحترم قبحهم طموحهم وكفاحهم واحسدكم على نجاحهم  
يبد أنى استطيع أن اميز أكثرهم مهما لوفعت مراكزهم فى الحياة  
بما المحه فى نظراتهم من عفاء سافر وكراهية عميقة لى هم دونهم  
ذلك لأن ما يدفعهم ويحثهم على التقدم والتفوق لى مجرد الرغبة  
فى المناصب ، بقدر حرصهم الشديد، ولهفتهم القوية فى التخلص  
من شوء يشدهم ويجلبهم الى القاع ، فما يكاد الواحد يجد الفرصة  
لقد منحت له ليطفو فوق السطح حتى ينفض ثيابه اشعثازا مما  
علق به من أدران الماضى ، ولا يتطلع الى من خلفهم وراء ظهره الا  
فكررا ، بل أن عقدة النقص التى ترمست فى اللاشعور من عقله  
تجعله يقسو فى المعاملة على من يسوقه سوء الحظ فيعمل تحت  
أمره ، وكأنه ينتقم مما شاهده ولقيه فى طفولته .

وكثيرا ما ساءلت نفسى هل كانت أمك أسعد حالا مما هى الآن  
لو تزوجت رجلا مثل فاشيه ؟ أما كان كل منهما يفسد صاحبه  
وتضافر قواهما فى شق طريقهما نحو النجاح ؟

ولا استطيع أن اخدع نفسى أو اضعها فى غير موضعها ، فابنى  
أعلم تماما أن طراز أمك من النساء لا يتلاءم معى ، وكان يجسر لى  
أن ابحت عن امرأة بسيطة محدودة المراهب تلزم بيتها قائمة بإدارة  
شئونها المنزلية ، وتعيد طهي اصناف الطعام ورعاية الأطفال ، امرأة  
مثل السيدة ترمبلى ، أو ترانى مخطئا اتشبت بالخيالات والأوهام ؟  
وهل هى سعيدة بزوجها حقا ؟

ويفرض أن والدتك كانت قد تزوجت فاشيه أما كانت تستقل  
على اشباع طموحها نحو الشهرة والمجد ، فى ميدان يختلف تماما  
عن ذلك الذى لمح نجم زوجها فيه ، ولا تلبث عاجلا أو أجسلا أن  
تنشق عليه ، وتضرب بذلك الأحق عرض الحائط .

هذا يذكرنى بما حدث هذا المساء . . فلقد سمعت صوته وأنا  
أعرف صوته جيدا ليتحدث فى همس مع والدتك أمام الباب الخارجى  
ويقول لها : أن يخرج آئين معك ؟

— أنت تعرف آئين أكثر منى لو استطعت أن تحرك جبلا لكان  
ذلك أسبر من أن يجعله يخرج من البيت بعد العشاء !

وليس غرتنا في الشقة الآن وانت ، ولا ينبعث أي ضوء إلا من  
فرقتك ومكتبى وياقنى الغرف تسيح في ظلام داس ، أنت تجلس  
أمام قنطرة تقرأ وأنا أجلس أمام مكتبى أحاول الكتابة ، وهاتذا  
أسمعك في هذه اللحظة وانت تنطلق نحو الثلاثة الكهربائية وتفتحها  
لنعد لنفسك كوبا من الليمونادة وتقدير الزمن الذى قضيته في  
المطبخ ، عرفت انك قد وقعت على بعض الصحف التى سال لها  
لهايك شريحة من اللحم البارد أو ربما قطعة من « الجانوه » ؟

وتوقعت - وأنا أمسك أنفاسى - أن تجيء الى غرفتى فتبادل  
بعض الحديث ونرى من نفسينا ، فلا شك انك قد رأيت الضوء  
ينبعث من تحت عتب بابى في اثناء مرورك به ، ولكنك - أكبر الظن  
كنت متأثرا بما اعتادت أمك أن تنبهك اليه دائما من عدم اقترحام  
خلونى حيث اكون مشغولا في عملى - فخشيت أن تفضبنى وتقطع  
على تفكيرى !

واتى لأمجب مما انتابنى هذا المساء ، فانا اشعر ببعض الاضطراب  
وأنا اكتب كل ذلك الهراء محاولا عينا أن ابطيه ما استطعت قبل  
أن اصل لتلك المرحلة الحاسمة من قصتى ، والتى أراها تقترب منى  
برغم أنفى بخطوات حثيثة ، أها يا ولدى أهم ما فى رسالتى اليك  
يل هى السبب المباشر فى كتابتها لك .

ولكنى - وقبل ذلك - أرى نفسى مضطرا الى تذكرك بعادة  
صغيرة ، أرجو ألا تترك فى نفسك انطباعا بانى أحاول اثارتك ضد  
والدك ، حدث ذلك وانت فى فرقتك الخامسة ، وحتى ذلك  
الحين ، وانت الأول دائما فى فرقتك خلال مراحل تعليمك ، اللهم  
إلا نادوا حينما يشتد التنافس ويضوئك الحظ فتحتل المركز الثانى  
فى الترتيب ، ثم يشتعل حماسك فتعود لتحتل المركز الأول !

وكنا نحرص فى نهاية كل عام على أن تحتفل بتفوقك وتقدير  
لك هدية ثمينة على سبيل التقدير والتشجيع !  
ولست أدري كيف شعرت فجأة بأنك على غير عادتك ولست على  
مايرام ذلك العام ؟ ربما حاستى السادسة هى التى نهتنى لذلك ،  
أو من غريزة مكتسبة مما جربته فى صباى ، ومن ثم فقد أدركت

أتك تمنى قلما نفسيا ، اكبر على أنه يعود لحاجتك الشديدة لشئ  
من الرياضة والراحة والاسترخاء الذهني ، فقد لاحظت أنك تركز  
جل فكرك واهتمامك في الاستذكار والتحصيل دون أن تفكر لبدنك  
حقا .

وكنت قد تعرفت في أثناء اصطافنا - في العام السابق -  
باراشون ببعض الأولاد وكانوا يمتلكون زورقا ، فطلبت مني أن تكون  
هديتي لك في عيد الميلاد زورقا مثله ، ولكن أمك سأرت ملاحق  
تعارضك في خشونة ظاهرة وتقول :

- ما اسخف رأيك ! اتطلب هدية لعيد الميلاد لن تعيد منها إلا  
في الصيف القادم وبعد ستة شهور كاملة ؟ لم أين نستطيع أن  
نحتفظ به في باريس ؟ أنصح زورقا في شقتنا ؟ فكر في هدية أخرى  
تناسب عيد الميلاد أما الزورق فطالك أن تشر من ساعدك وتجد  
وتكد في الاستذكار ، وسوف نشتره لك في الصيف القادم ليكون  
هدية تفوقك ونجاحك !

وفي رايها أنك حتى تستحق الجائزة ينبغي ألا تفوز بأقل من  
المركز الثاني ، ولا شك أنها معذورة في هذا ، فانت الذي عودتها  
بنفسك ذلك .

وكنت - قبل امتحانك شهر كامل - قد ذهبت لافسرج  
على الزوارق في ميدان الجيش الكبير ، وطلبت منك مرافقتي حتى  
أيقن الطراز الذي تحبه وترغب فيه .  
- هل هذا ما تريد ؟

فقد أومات إلى زورق متوسط الحجم مصنوع من الألبونيوم  
المذهب ، ولاحظت - لشدة دهشتي - أنك كنت فاقده الحماس  
بشكل واضح ، فقد بدا عليك الوجوم والتفكير والحزن ، كما لو  
كنت تشير إلى تابوت لا إلى هدية ثمينة تمنيت الحصول عليها !

وذاث مساء ونحن على مائدة العشاء سمعتك تقول وفي صوتك  
رنة ألم واسى :

- من المؤكد أنني لن أكون على رأس فرقتي هذا العام ، لقد  
نحائني الحظ في اللغة اللاتينية .



وانفجرت امك قاضية متوعدة :

— اما حطرتك مرارا ونبهتك الى أنك لا تبلى اقصى جهلك فى استيعاب النرومى ؟

ومع ذلك كنت قد اشتريت لك ذلك الزورق ، وتركته فى المتجر بعد ان وعدتهم باتى ساخرهم تليفونيا بالموعد والمكان اللذين سيتم فيهما التسليم .

وحينما ذهبت الى حفل توزيع الشهادات والجوائز الذى تقيمه المدرسة آخر كل عام ، والذى اعتدت ان اشهده برفقة والدتك — مع قلة من الأبناء يحضرونه — تبين أنك لم تحرز الترتيب الاول ولا الثانى ، بل احزرت السادس !

وما زلت اذكر لحظة ان خرج ثلاثتنا من باب مدرسة اللبسية كارتو صامتين وكان على وعوسنا الطير ، وعندئذ كنت اتلهف على ان امسك يدك . واضغط عليها مواسيا مشجعا لابتسامة فى نفسك شيئا من الثقة والطمأنينة ، ولكنك كنت بعيدا عني بجسمك وقلبك ، وكانت امك بينما لم تنبس بحرف واحد حتى وصلنا باب بيتنا فى ميدان ماكماهون ، وعندئذ نظرت اليك بعينين ينبت منهما الشر :

— لا اظنك تفكر الآن فى الحصول على ذلك الزورق يا جان بول ؟

ولم تنبس ببنت شفة ، بل شمخت بانفك فى الهواء ومضيت لا تلوى على شيء .  
وحين انعددت بوالدتك بدأت ادامع عنك . ولكنها قالت فى بهزم :

— تستطيع ان تفعل ما يحلو لك ، فانت أبوه ، اما الامر بالنسبة لى فهو مسألة مبدأ ، فذلك الزورق ما هو الا مكافأة كان سينالها نظير القيام بعمل ما ، وهذا ما تم التفاهم عليه بيننا وبين جان بول ، وهو الذى قد اخل من جانبه بهذا الاتفاق المبرم بيننا ، ولم يعمل فقط فى اللاتينية ، بل حصل على درجات مخجلة فى بعض المواد الأخرى . فاذا ما عودته ان فى وسعه ان يتال شيئا نظير الكسل والاهمال قلن نخلق منه رجلا يحقق النجاح بقوة ساعديه ، او يشعر

يطلع المكافاة مقابل الكفاح والعرق ؛ بل سيكون شأنك شأن الدبة  
التي قتلت صاحبها الذي تحبه !

وعندئذ ومرة أخرى فهمت وجهة نظرها ؛ وربما لم تخطيء في  
تلقاها أو يجانبها الصواب في صدق رايها ، ومع ذلك فقد انطلقت  
الى غرفتك ، حيث كنت منكبا فوق مكتبك تنظاها بقراءة إحدى  
الروايات .

قلت لك بصوت خفيض ؛

« لا تبئس فسوف تحصل على هديتك ! »

« فاجبتني وأنت تنظر الى نظرة تمثلت فيها الرجولة والنضج  
وقد خيل الى أنك حزين من اجلي ؛  
— لا تفعل ذلك يا ابتاه !

« صه ، استري زورقك في انتظارك حالما تصل الى اراتون ،  
— لا ، لم اعد بحاجة اليه .

وتهمت وجهة نظرك ايضا ، اجل . . فهمتكما معا ، أنت  
ووالدك .

وظل الزورق خمسة عشر يوما ملقى في حديقة الفيلا التي  
امتدنا استجارها كل صيف في اراتون دون أن تلقى عليه نظرة  
واحدة .

كان بؤلك وبحر في نفسك أنك لا تستحقه .

أقول لك ذلك لأن أبي اهدى الى زورقا انا الآخر ذات يوم ؛  
وبالرغم من أني لم أكن جديرا به فقد قبلته بلا تردد ، بل قبله  
استخدمته في شق طريقى وسط الامواج العاتية حتى وصلت بين  
الامان .

ومن اجل ذلك . . انطلقت وانا فيما بين العشرين والثلاثين  
أقتل نفسي في العمل الشاق دون أن ابيح لها اية فرصة للمرات .

كان ذلك حتى اموضى ما فاتنى ، وأؤكد لنفسي — قبل اى  
مخلوق آخر — انه لولا فضل ابي على ما استطعت ان اجلس الان  
لاسطر لك هذا ، ولربما كان قد مضى وجه التاريخ بالنسبة لاميرة  
لافرنصوا !

## الفصل الخامس

كنت في مثل قامتك، أما اعرض منك قليلا عند الكتفين، لاى -  
بعينها كنت في مثل قامتك - اكبرك بثلاثة اعوام ، واليك في ايجاز  
شديد ما اعرفه عن اسرى واسرى .

وكبدية لحدبى وفي نظرى من الاعمىة بمكان ان  
عرف انى لم انعم في طفولتى او صباى بالاقامة في منزل خاص  
او شقة نملكها مثل باقى الاطفال ، بل في مساكن حكومية يختلف  
الساع حجراتها وينبأين انائها وقرائها ايضا من البسط الى الفاخ  
من الرياض كلما تنقل ابى من منصب لآخر لرفع شأنه .

وحين ولدت انا - كان ابى فيليب لافرنسوا - الذى لم  
يتجاوز التاسعة والعشرين ويحمل الدكتوراه في القانون - قد  
بدأ - منذ وقت وجيز - حياته الادارية ، وشغل منصب السكرتير  
العام لمحافظة « جاب » في مقاطعة الالب العليا ، لم - وانا في  
الثالثة من عمرى - كان وكيلاً لمحافظة ميلو والافرون ، ثم صلا  
بعد ذلك وكيلاً لمحافظة جراسي حيث هرفت المدرسة لأول مرة في  
حيالى .

وقد تدرجت بعد ذلك بين اليسيه في مدينة بو ، ثم ليسيه  
اليتلون ، واخيرا في لاروشيل حيث استقر مقامنا بها حوالى سبع  
سنوات متوالية ، ولعل هذه المدينة الاخيرة هي الوحيدة التى اتاح  
لي طول المدة ، ان اعرفها في طفولتى ، اما ما عداها واقمنا فيها  
من قبل فلمنت اذكر عنها الا ملامح خفيفة اشبه بالاطياف لقلة  
مقامنا بها .

ما كنت اكاد احنا بدار جديدة واعتادها وانظم حاجتى ولصبي  
للى قرنتى ، وابنا احبها ، وآلف اساتذتى ومعلمى في المدرسة ،  
واعرف الى رفاق وابنا معهم صداقات جديدة حتى يصدر امن  
قلنا الى محافظة اخرى بمسكن حكومي جديد وعرف اخرى ووجوه  
تختلف تماما عما اعتدتها .

وهناك في لاروشيل تزوجت شقيقتى اوليت بيير قاشيه الذى  
لكان كما اخبرك سابقا رئيسا للمستخلمين في مصلحة الانسفال

المعروبة ، ولم يجد العروسان الصغيران بيتا ملائما ينتقلان اليه ،  
أو لعلهما قد زعما ذلك رغبة في الاقتصاد والتدبير ، فشاركنا في  
الإقامة في الطابق المخصص لسكناتنا في دلة المحافظة .  
واستطيع أن أزهو أمامك بأبوى .

فذلك القصر القديم الكتيب الذي فتحت عينيك لترى جلدك  
وجلدك يعيشان فيه بضاحية «لوفيسينيه» كذلك مظهرهما البسيط  
وحياتهما الهادئة المتواضعة بعد أن بلغا من الكبر عتيا ، كل ذلك  
ليس كافيا حتى ترسم في نفسك صورة كاملة عنهما .

ولن اغوص بك بعيدا في اعماق الماضي البعيد : في الواقع ليس  
أبعد من اوربان لامرنسوا جد ابي الذي عاش في المرة ما بين  
« ١٨٢٢ - ١٨٩٩ » ولعل من المثير أن تعرف أنه كان صديقا حميما  
لشاهير العظماء ممن خلفهم التاريخ ، أمثال فكتور هوجو ومارلين  
وجورج صاند واسكندر دوماس الكبير ، ومازلت احتفظ بكثير من  
الخطابات المتبادلة بينه وبين أولئك وغيرهم من رجال الفنون  
والاداب .

وإذا كنت قد رأيت صورة للدوق دي موري في صورة طبق  
الاصل لجد ابي .

وستطيع أن تتخيله وهو في ثياب الامبراطورية الثابتة  
الموشاة . وهو يتردد دائما على البلاط ، حيث كانت الامبراطورة  
يوجيتي تميل لصحبته وتعد حديثه وفكاهته ومداعباته المرحلة ،  
وكان ينفق من دخله الخاص - شأن سرة القوم ونبلائهم في ذلك  
العصر مسرفا الى حد التدبير على حساب هدم رأس ماله ، ومن  
حسن حظ ابنائه أنه كان مفتوحا بهواية شراء اللوحات الزيتية التي  
يرسمها اصداقؤه الرسامون ، وحين مات كانت تلك اللوحات أغلى  
ثمنا وأرفع قيمة من الفدادين القليلة التي خلفها وراءه مثقلة  
بالرهون والديون .

ولقد رآه ابي في أيامه الأخيرة ، وتأثر بما كان يعيش فيه جده  
من ترف وبلذخ ، وسمعته يخبر امامي بأن جده كان أحد أعضاء  
تلاي « الجوكي » الذي كان مجرد الإنسياب اليه شرفا عظيمسا  
وفخرا كبيرا .

وقى نظري ، واتا من جيل يسبق جيلك ، اتى يشق على ان  
الصور حياة الفراغ التى كان يعيشها امثال هؤلاء الناس عاطلين  
بلا عمل ، لا شاغل لهم سوى الاغتراف من ملاذ الحياة والتمتع  
بمصراتها .

وكان يمتلك بيتا قرويا صغيرا من طراز القرن الثامن عشر  
يتوسط فناء كبيرا فى شارع دى بك ورثه جدى واقام فيه طول  
حياته . ولقد اخذتلك ذات يوم لتراه ، انذكر لا ذلك البناء الأثرى  
الذى بواسطة محلا لبيع الانتيكات على اليسار ، ومكتبة قديمة الى  
اليمنى . وله باب صحن مدهون بالأحضر القامق اذا دلت منه مررت  
تحت قفلة ذات اعمدة بها غرفة البواب ، ثم سرت فوق المبنى الى  
الفناء الكبير المرصوف بالحجر المربع الملون ورأيت شجرة الليمون  
الكبيرة التى بوسطه .

اما الممر الذى فى الجانب البعيد والذى يبدو وكأنه عثر غرام  
تمنزل عن الميون فابى اعتقد انه قد شيد خصيصا ليضم بين جدرانها  
الرفيعة الحايه محبوبة لأحد النبلاء الأرستقراطيين او ربما لأحد  
قادة الجيش من الجنرالات العظام الذين استحلوا من قلب الريف  
وعرف عنهم شدة العيرة على من يملكون من الفانيشات ، وعلى  
الأخص حين يجول بين غرفه الممتدة الواسعة ذات الشرفات  
الكبيرة التى تحمل احواس الزهور الساحرة ، وتصل الى غرفة  
الجلوس ومنها الى مكتب جدى .

وخشى . اذا ما وصفت لك جدى ارماند لافرسوا ، ان تحسبه  
أحد تلك الشحفيات الهرلية التى تبعثك على الضحك . فلا بد انك  
شاهدت بعض الاعداد القديمة من مجلة « الحياه الباريسية » وما  
اعتادت ان يبرره بين صفحاتها من حين لآخر من الرسوم الكاريكاتورية  
التي تمثل « ايام زمان » : أولئك رجال مشدودو القوام شمرهم  
طويل أبيض ناصع ، وشواربهم كثة مصبغة ، والمونوكل يلمع فوق  
أعينهم ينظرون من خلاله فى كريباء وامستعلاء ، وقد ارتدوا  
الصداريات ذات الذيل الطويل من الخلف والمفتوح من الأمام ، فرق  
سراويل حربية ملونة ضيقة عند الركبتين !

تلك هى - باختصار - صورة جدى ، اذا أضعت اليها ان

شعر واسه لم يكن قزيرا وتلدب صلح خفيف في القدمة كان يحاول  
بجاءه اخفاءه بتمشيط شعر الجانبين في المنتصف

لرستقراطي عجوز كما سمعتهم يطلقون عليه ، ماتت زوجته  
الشابة وتركته في مقتبل العمر ، فمضى يرى نفسه ويبحث عن  
الساوي على نطاق واسع حتى حينما بلغ السبعين كان ما يزال فيه  
بقية من فتوة وفشاط .

لكنه لم يكن عاطلا مثل ابيه ، فقد عكف على الدرس والتحصيل  
في همة وقوة حتى حصل على اعلى الشهادات في الاقتصاد  
السياسي ثم لمع نجمه وشغل ارقى المناصب في ديوان المحاسبة .

كل ذلك قد يكون ثقيلا على نفسك ، يبعثك على السأم والملل ؟  
أعرف ذلك جيدا ، ولكنني قد أخبرتك سلفا بأن ذكرى الانسان  
تعيش مائة عام ثم تندثر ، ولم يمض الا اقل من عشرين عاما لا غير  
عند أن توفي جدي في السنة التي تزوجت فيها - وقد بلغ السابعة  
والسبعين من عمره ، ومن ثم أجد صعوبة في رسم صورة حية له  
أمام عينيك .

وما من شك في أنه كان قليل الكلام ، جامد الوجه ، بفخر  
بأنه يستطيع أن يمتلك زمام عواطفه فلا تكشف ملامحه ما قد  
ينطبع في نفسه من انفعالات ومشاعر ، وأذكر ذات يوم حين كنا  
أقيما بين العاشرة والحادية عشرة من سنن حياتي ، أن غلبني البكاء  
لقد حضروه ، فما كان منه الا أن وضع المونوكل فوق عينه وحذجنى  
بنظرة مقطبا حاجبيه ، ثم رمق أبى بنظرة لوم وعتاب .

أترأه كان يعاني الآم الوحدة خلال الأعوام العشرين الأخيرة من  
حياته ؟ فقد كان يعيش وحيدا في عشه الصغير الا من طبخة  
عجوز - ليونتين التي خدمته طوال حياتها - ووصيف يدهي  
أميل ابن أحد الزارعين القسماء .

وكان ما ورثه عن ابيه من مال قليل قد ذاب ، كما يلذوب الجليد  
تحت الشمس الحارة ، ولم يبق الا تلك اللوحات الزيتية ، ولم يكن  
لثمنها قد ارتفع بعد ، أما البيت الذي يقيم فيه في شارع دي باف  
لقد كان متقلا بالرهون ، تستغرقه الديون الى آخر ملجم من ثمنه .

ومع ذلك ، فقد استطاع أن يحتفظ بكرامته وكبريائه الى آخر لحظات حياته ، ومن بينها السنوات الثلاث الأخيرة التي قضاها فوق مقعد متحرك على عجل .

هل كان يعلم بما حدث في عام ١٩٢٨ ؟ لا أدري ! بيد اني متيقن من ان ابى لم يذكر له شيئا اطلاقا ورغم ذلك فاكاد اقسم انه حدى وشعر ، وحملنى كل التبعات والقي على اللوم ، فقد تغيرت نظره نحوى ، وانتقلت طابعا من البرود وعدم الاكتراث الشديد .

وكان يحمل هو ايضا - مثل السيد مدير شركة التأمين - وسام الشرف من طبقة فارس ، كما كان يحوز فى الوقت نفسه عددا من القلادات والنياشين التى منحتها اباهما كثير من الدول الاخرى ، التى انتدبه اليها لاستشارته فى امور المال والاقتصاد .

والنياب با ولدى كثيرا ما يخدمون فى امثال هؤلاء ممن يرتدون ثناعاتا فوق وجوههم ، يكرهونهم قبل ان يحاولوا النفاذ الى ما وراء ذلك فيصلوا الى القلب الابيض الممتلىء طيبة وحبا .

اما وقد مضى سبعة عشر عاما على وفاته ، فانا اشعر بالأسف لانى لم اوجه اليه اسئلة معينة فلا شك فى انه وقد حنكه التجارب والايام ، ورأى كثيرا من صنوف الناس والحياة لا شك فى انه كان على ذكاء كبير وتمكبر عميق ، وكان فى وسعه ان يقود نفس الضالة الحائرة الى بر السلامة والامان ويجيب عن اسئلتى !

وربما كنت مخطئا فى اوهامى فما من والد الا ويتمنى لو استطاع ان يفرغ عصاره قلبه وخلاصة تجاربه فى عقل ولده حتى يحميه ويؤمنه على مستقبله من مفاجات الزمن واحداثه ، ولولا ما ورثه ايانا الاجيال الماضية من ينابيع الحكمة والمعرفة التى حمل اجدادنا مشعلها منذ آلاف السنين ، وثناقلها السواعد الفتية من جيل الى جيل ما قامت على ارضنا مدينة ولا حضارة ، ولظلمنا نقيم فى افوان الكهوف واعماق الجبال !

كان الفارق بين جدى وجليك كبيرا ، انه الفارق بين ذلك المثنى الصغير الجميل بشارع دى باك والذى لم يعد لنا منذ امد طويل ، وسوف يهدمونه ليقموا مكانه فورا حديثة - وبين فيلا مياحالى - هل انه الفارق بين ذكريات طفولتى وذكريات طفولتك !

كنت أجد جدى جامد القلب بارود الماطفة .

كذلك لا بد أنك رايت فى ابنى قطعة الثرية مهمله ، نسج عليها  
هتكوت التسيان خيوطه فى ظلال تلك الحياة المله فى فيلا ماجالى  
وهنا اختلف أنا معك ، فهو فى نظرى - لا لانه ابنى ، بل للحقيقة  
والتاريخ - هو فى نظرى المثل الأعلى فى الوفاء والحب والتضحية  
لم يفكر فى عدم الوفاء لزوجته المريضة ونذر نفسه لرعايتها  
فى ايمان واحلام حتى لفظت آخر انفاسها راضية سعيدة .

ولأنهما لم يظهر الا على هامش حياتنا فقط ، ولم تتوطد  
صلاتنا بهما لبعد الشقة بيننا وبينهما ، باعتبارهما جيلا ثانيا  
بالنسبة لى ولك فنحن لا نراهما الا اشباحا غير واضحة ، وخطوطا  
باهتة لا تثير فىنا شديد اهتمام . دون ان نذكر ان كلا منهما لا بد  
قد كان ، فى ايام عزه وعنفوانه ، نجما يلمع فى السماء ، وتركز  
عليه الأصواء .

وربما حين نجلس بين ابنائك وجفدتك ذات يوم وتستعيد معهم  
ذكريات الماضى . . تحب ان تذكر لهم شيئا عن جلدك الثانى - والد  
امى لوسيان ايفارد - الذى لا شك أنك قد قرأت عنه فى  
دوايسك . فقد كان رجلا ذا أهمية كبيرة فى المجتمع الدولى .

فبينما كان جدى لا فرسوا قد نجح فى شق طريقه فى السلك  
الإدارى تحت ظل الجمهورية ، كان جدى ايفارد يلعب دورا هاما فى  
السياسة الدولية حينما كانت وظيفة السفير أعظم مناصب الدولة  
على الإطلاق .

اتعلم ان امى لم تمنا قط بالاقامة فى منزل دائم منذ ولدت الى  
أن اقامت فى فيلا ماجالى بضاحية لوفيسينيه ؟ فلقد كانت تنتقل  
من سفارة لآخرى فى مواسم الدنيا ، ثم بعد أن تزوجت ابنى ظلت  
تنتقل معه بين مختلف المحافظات الفرنسية منذ أن احتل فى شبابه  
مُنصب السكرتير العام حتى غدا محاطا مرهوب الاسم والجانب  
فلقد ولدت أمك فى بكى - وتعلمت القراءة فى أحد اديرة بيونس  
ايرس قبل ان تذهب الى استوكهولم وروما ثم برلين .



وكذلك كانت أمها من قبل . ولدت على أرض اجنبية ، وكان اسمها ( كونسويلو كافيز ) ابنة وزير كوبا المعوض في لندن ، وهناك تقابلت مع جدى فى إحدى الحفلات الدبلوماسية حين كان يعمل مسكراً لسفارتنا .

واننى - مثلك يا ولدى - اكاد اكون خالى الذهن تماماً من ذلك الطراز من الحياة التى لم تشهدها عيناي والتى لا شك فى أنه قد أصابها كثير من التعديل منذ تلك السنين الماضية حتى الآن .

واذكر انى قرأت ذات يوم مذكرات جدى لوسيل آيفارد وهو مجلد كبير من جزأين طبعه أحد كبار الناشرين فى ١ فوبورج سان جرمان) ، وأطرف ما فيه ذلك الباب الذى بضع فيه الحلول لمشكلات الشرق الأوسط ، وكذا الجزء الذى تلقى فيه كثيراً ومريداً من الأضواء على سياسة الداهية بسمارك فى الملاحه لمسألة دول أمريكا اللاتينية مما يؤكد عمق تفكير جدى وأهمية الدور الذى لعبه على مسرح السياسة الدولية ، ولقد وقفت طويلاً عند تلك الفترة التى يقول فيها :

« كانت لنا مصادرنا الأمنية الخاصة التى تزودنا بالحقائق المجردة الخطيرة ، وتمدنا بسبل لا ينتهى مما يدور خلف الكواليس وبين ردهات القصور وجدران المكاتب الصماء التى علق على أبوابها الحراس المدججون بالسلاح من احاديث سرية حتى لا نحتاج فى أى وقت بما ليس فى الحسبان . ولقد كان من واجتنا ان نبتم فى وجوه الد أعدائنا : نظهر خلاف ما نبطن ، ونضحك ملء أفواهنا فى أشد الأزمات وأخرج الأوقات ، ونقيم حفلات الاستقبال . وهناك بين الرفقات وكثوس الشراب وغمزات الأعين ورنين القللات وعبارات المجاملة والترحيب ، تحاك أخطر المؤامرات السرية ممزوجة بقصص الحب والهيام ! » .

ولم تكن امى وحقيقتها - بحكم اختلاطهم - غارفات لأذهن فى تلك الحياة الصاخبة فحسب ، بل كانت - جدتك - تلعب لهم الأدوار وألهاها على مسرح السياسة العالية فى عصر فيه كثير من المروء الضخمة على الزوال والانحيار ، ولم تكن أسماء ادوارد السابع وليوبولد الثانى والقيصر أو الارشيدوق العظيم بالنسبة لها

مجرد أسماء تتردد في الصحف أو بين كتّيب التاريخ ، بل مخطوبات من لحم ودم كثيرا ما ظهرت اسماعهم من بين طالبي مراقصاتها . ومن المؤكد أن جمالها كان فاتنا ، ولوحتها الباسطيل المعلقة على جدار غرفة مكتبى تشهد بذلك ، ولكن أهم ما كانت تتميز به هو روحها المرحية وجراتها المذهلة ، مما جعلها المم والاشهر نجوم المجتمع في ذلك العصر ، وكان ذلك منها أمرا شاذا غير مألوف بالنسبة لعادات وتقاليد تلك الأيام ، التي كانت تسم بكثير من التحفظ وخاصة بالنسبة للنساء .

وكانت في الثالثة والعشرين من عمرها ، عندما شغل أبوها منصباً خطيراً في وزارة الخارجية ، وفي تلك الأيام جمعها القدر مع أبي الذي كان يكبرها بأربعة أعوام .

وكانت شقيقاتها جميعهن قد تزوجن وقرن في بيوتهن ماعداها وعرف الناس جميعاً أنها لن تتزوج أبداً لأنها فتاة طائشة جموح تملكها الغرور ، ولن يقدر أحد على كبح جمالها ، وأنها لن تسلم قيادها أو قلبها لأي إنسان !

ثم وقعت تلك الحادثة المؤسفة والتي أخبرتنى بها حقيقتي : ولست أدري من أين عملت بها ومن أى طريق ؟ فمن الثابت أن أحداً لم يذكرها على لسانه قط في بيتنا .

كانت الميازات شيئاً نادراً في عام ١٩٠٢ بل حرماً كثيراً من القوائين ، وأن وقعت في بعض الظروف فبنسبة أقل بكثير مما اعتاده الناس في أواخر القرن الماضي حين كان المسفس والسيف أو الخنجر هو أسهل الحلول لكل المشاكل مهما اختلف أنواعها بين أفراد الطبقات النبيلة .

ولى تلك السنة لقي أحد من عرفهم - أسمى وهو كونت إيطالي - احتفه في مبارزة بالسيف ، وأكبر ظنى أن المسألة بدأت في ملهى مكسيم ، وفى إحدى السهرات الصاخبة حين مضى أحدهم يلتقى بعض الفكاهات اللاذعة التي تمس سيرة ابنه السفير آيفارد وكان المتحدث أحد نبلاء دول البلطيق .

وشهدت غاية ( ميودو ) في ضامة مبكرة ذات صباح ، مبارزة لم تستغرق سوى دقائق ، التحم فيها سيفان ، ثم كانت الخاتمة

السريعة حينما ظعن النبل البطيقي - قريصه للكونت الايطالى  
مطمنة نجلاء مات على اثرها ، واضطر ان يغادر باريس على عجل ،  
وظل محروما من رؤية ابوابها حتى بعد الحرب العالمية الاولى .

اما فى ايطاليا فقد أعلن الحداد على الضحية السكينة ، وكان  
لمقتله مدى كبير ، ولست ادري هل الاسرتان مازالتا تحتفظان  
بذكرى ذلك الحادث الاليم ؟ وهل ترى بقص العجائر والشيوخ على  
اولادهم وحديثهم فى ليالى السناء قصة جدتك والدور الذى لعبته  
بطريق غير مباشر فى حياتهما ؟

ولعلك سمعت امك - حين يثور بيننا نقاش لسبب ما يخرجها  
عن طورها - وهى تهتف فى حدة :

- اراك تداوم على تسميه آرائى لانى لست من اسرة  
لافرنسوا !

او تحدجك ببصرها فى بعض الظروف حين تشمخ بانفك فى  
وجهها عزة وكبرياء ، فتقول لك فاضية : - حقا انك لمن اسرة  
لافرنسوا !

فهما حاولت ان تستطيع ان تنسى انها انحدرت من قوم بسطاء  
لم يكن لهم شأن كبير فى المجتمع ، ومن ثم فهى تكن لى - بدون  
قصد فى اعماق لاشعورها الباطنى - خفية خفية ، تطفو  
فى المناسبات غير المارة فتبعث فيها اعتقادا بانى ازدرىها لذلك  
السبب برغم انى - واؤكد لك ذلك - لا امير هذا الامر ادى  
اهتمام . وذلك الحسب والنسب الذى يقف دائما شعبا بيننا -  
انا نفسى - اود من اعماق قلبى لو اتساه ولا فضل لى فيه !

وليس ثمة شك فى ان اى زواج لايعنى مجرد ارتباط شخصين  
لا غير ، بل هو فى الحقيقة اندماج اسرتين وعشرين لكل منهما  
تاريخها واخلاقتها وطباعها ونظام حياتها ، ولا بد من حدوث اصطدام  
بينهما ليتم التمازج المطلوب ، ولا بد من ان ينطب الطرف القوي  
منهما على الضعيف ، فيسير فى ركابه ، ومن ثم تتراجع العشرة  
الضعيفتين الظلال ولا تلبث حتى تختفى فى زوايا الاهمال والنسيان  
ولكن بعد ان تتخلف عن ذلك الصراع الخفى شعور بالمرارة ثم يزول  
بمضى الاجيال .

ولم اكن امرئ ذلك ، ونحن كى مدينة كان ، بل ولم افكر ليه  
بتاتا ، واستطيع ان اعترف صراحة باتى ادركت ذلك للمرة الاولى ،  
وشعرت باتى سليل اسرة لافرنسوا واحمل اسمها ، حين ولدتا  
انت ، وصفتنى الحقيقة التى لامر منها من انه سيكون لى وريثا  
يحمل اسمى واسم الاسرة من بعدى .

ولم تكن الهوة التى تفصل بين ابى وامى بمثل اتساعها بينى وبين  
امك ، كان الأولان من «عالم» واحد ، بينهما تكافؤ فى المركز  
الاجتماعى ، وكلاهما كان يبرز اسمه فى عمود الاجتماعيات اليومى  
بالصحف السيارة من امثال «الجلوا» والفيجارو ، باعتبارهما  
من البارزين واللامعين فى المجتمع الذى تهتم الطبقات الأخرى بتتبع  
أخباره .

كانت هناك بعض الفوارق الهينة - بلا ريب - وكان آيفارد قد  
أنفق جزءا كبيرا من ثروته وتضائل رصيده عن ذى قبل ، وخاصة  
بعد ان زوج اربعا من بنائه ودفع لكل منهم دوتة كبيرة تناسب  
مقامه كسفير معروف ، لكنه مع ذلك ظل محتفظا بمركزه ومهابته  
فى نظر الخاصة والعامة فى الوقت الذى كان فيه لافرنسوا العرب  
يمثل الطبقة الارستقراطية القديمة بشبابه التقليدية المضحكة .  
وبعثة الكاذبة .

وكان أبى - بعد ان انتهى من دراساته فى القانون - قد اختار  
لنفسه الاحتراف فى سلك الوظائف الادارية داخل فرنسا ، لانساع  
هواية خاصة فى نفسه وكان فى استطاعته لو اراد ان يشغل وظيفة  
معتارة فى الخارج .

وشاعت التقادير ان يتقابل هو وامى فى احدى الحفلات الرسمية  
الراقصة ، ولم يكن قد مضى على تلك المباراة وقت طويل ، ومازال  
صداهها يتردد فى كل مكان ، فاجبها .

ارابت اذن لماذا طلبت منك ان تتلقى قبل ان تتعجل فى حكمك  
على ظاهرا الاشياء ؟ فلك العجوز البدينة النورمة التى لم ترها قط  
الا غارقة ساكنة فى مقعدها الكبير ، ميناءا مشدودتان للأمام فى  
نظرات شاردة ساهمة ، كانت فى عصرها اجمل وأذكى بنات باريس  
واحدن لسانا ، بل اشهر من فلر على علم !

واعتقد ان ابي - الذى كان يصغرها بأربعة اعوام وهو قساروق  
لا يستهان به فى تلك المرحلة من العمر وكان قد تخرج لتوه من  
الجامعة - لم يكن شديد الإعجاب بها فحسب ، بل بابيها أيضا .

مقد كان لها - برغم تجاوزها فترة البلوغ - مئات من المعجبين  
ممن هم المع مستقبلا من ابي ، يتهاكون تحت أقدامها ويلتصصون  
رضاعها ! .

وصارحنى ابي ذات يوم قائلا :

اوشكت ان أقبل العمل فى السلك السياسى خارج الجمهورية  
اعتقادا منى انه قد يرضى امك . .

فهل كانت قد سئمت السفر والترحال بين مختلف المسالك  
والدول ؟ ربما ! ولا تنس انها كانت تنعم فى تلك الفترة بمتعة  
الاسفرار فى فرنسا واكتشفت ذلك لأول مرة فى حياتها .  
وكانت فيلاماجالى - هى قصر آل أيفارد الربيعى ، وهناك كان  
ابى يزور خطبته أيام الاحاد .

وكان ابي جميل الشكل أنيق الهندام قوى البنية ممشوق  
القوام . اذا قلت انه ورث الجسم والعقل عن أبائه واجداده لم اكن  
مبالغا . وقد ظل محتفظا بكل ذلك حتى بعد ان بلغ من العمر عتيا .  
وما اريد ان أوضحه ، هو انه كان قد استهواه بريق مصب  
السفر ومركزه الاجتماعى العظيم ، كما تاق الى دخول ميدان المعركة  
وافتحام قلب والدك ، ذلك الحصن المنيع الذى استمضى على  
مهاجميه ممن هم اقوى وأخطر شائنا منه . .

وربما كان قليل الأمل فى الفوز بيدها اعتقادا بأنه غير جدير  
بها أو كفه لها ، وظل يحطم بقربها حطم الظمان الماء ، وكان امتثانه  
لها كبيرا حينما قبلت ان تكون شريكة حياته دون الناس اجمعين ،  
واعتبر ذلك نزولا منها وتضحية عظيمة لا يستحقها .

هل كانت تشجع بنفسها ذلك الشعور فيه ، لست فى موقف  
يسمح لى بالإجابة عن ذلك ، وليست لدى الماومات الكافية حتى  
أستطيع . واصارحك الحق ، فانا اعتقد يقينا انها كانت تشعر  
بالمعنة بحيثما لمس فيه اعترافا بالجميل الذى طوقت عنقه . .  
وهى التى عاشت طول حياتها تملأ أذنيها عبارات الاطراء والإعجاب

بجمالها من أكثر من مليونير كان مستعدا لأن يلقى بثروته تحت  
أقدامها لأول إشارة أو نظرة رضاء ، وانتهى بها المطاف لأن تفضل  
عليهم شابا تكله قيود الوظيفة ، محدود الدخل ، تنتقل معه في  
مساكن المحافظات الحكومية الرطبة .. وتضطر للانصات الى ثرثرة  
صحائر الفلاحات وزوجات الزارعين والموظفين بعد أن كانت نجمة  
تسطع تحت أضواء ثريات الحفلات الدبلوماسية ترمقها العيون في  
حسد وأعجاب ، حياة غريبة صغيرة تختلف تماما عما اعتادتها .

ومازلت أذكرها وهي في قمة جمالها ، كانت رائحة حقا كأنها  
فينوس ، بل أن جمال أمك يبدو متواضعا بسيطا بالنسبة لها .

ولقد انحست اختي أولا ، وبعد ذلك بأربعة أعوام انحبسني  
وحبستما بلفت الثانية عشرة من عمري وكنا قد انتقلنا لمدينة  
« لاروشيل » أصيبت بذلك المرض الخبيث الذي هدم سعادة أبي  
وحطم آماله .

كانت في الخامسة والأربعين وقت ذلك .. وتشهد اللوحات  
التي رسمت لها في ذلك الحين ، نأز الزمن لم يترك أي أثر في وجهها  
وظلت محتفظة بفتنتها وجمالها ، ومازلت أتذكر أنني في طفولتي ،  
كثيرا ما كنت أندس بين ذراعيها وأحوط رقبتيها بساعدي قائلا  
« ما أجملك ! »

وكنت أقول لرفاق طفولتي مفاخرات :

« أمي أجمل امرأة في الوجود »

فهل أصابتها عين الحسد ، أو لعل نشاطها وحيوتها : دفقة  
قد أحدثت خللا ما في جسمها القوي ؟

ومهما كان الأمر ، فقد شعرت ذات يوم بالحمل ، ولدت أنها  
لم تكن تتوقع حدوث ذلك مرة أخرى ، الأمر الذي أثار الشك في  
نفسها .

وانطلقت لزيارة الطبيب وقد ارتسمت على شفطيها ابتسامتها  
المشرقة ، لعلها كانت تخفي ماقر نفسها من قلق ، بيد أنها حينها  
عادت الى البيت كانت كأنها قد هبط قناع مخيف على وجهها .

ومازلت أستعيد في نفسي ذكر بات ذلك اليوم ، كان يوم الخميس

من أكتوبر ، ولم يكن عندنا معلومة في ذلك اليوم ، فالتفت عليهما  
أرجوها أن تأخذني معها فقالت :

— ليست زيارة الأطباء مما يبحث السرور في النفس .

وكان رجلا طويل القامة جدا ذا شارب كث صغير ورأس يضاوي  
مستطيل ، كثيرا ما شاهدته في حفلات الاستقبال بدار المحافظة .  
كانت قد خرجت في الثالثة ، وحتى الرابعة مساء لم تكن قد  
عادت ، وتحدث أبي من مكتبه في النليوم يسأل عنها .  
— هل عادت ماما ؟

— لم تعد بعد .

وكرر الاتصال والسؤال عنها بعد ذلك مرتين أو ثلاثا ، ولم يكن  
أعلم وقتئذ انهما كانا يتوقعا انجاب طفل ثالث ، أح أو أخت  
جديدة ، وكانت عنك أوليت في الخامسة عشرة من عمرها . . .  
تستقبل بعض صديقاتها البنات في عرفة الجلوس .

واذكر حينما عادت أمي وطبعت على جبينى ابتسامة شاردة ، أنها  
لم تكن وقتئذ على ما برام ، فالتها وأنا أرنو الى وجهها العائس :  
— ماذا قل ؟ أمريضة أنت ؟

— لا تشغل بالك ، أشعر بنعب بسيط .

— لقد اتصل أبي عدة مرات يسأل عنك . . .

فابتسمت ورفعت المصراع .

— فيليب ؟ هالبا قد عدت .

ويبدو أنه وجه اليها سؤالا ، أجابت عليه بضحكة قصيرة  
مفنصبة .

— كلا ، ليس ما توقعناه ، أشعر بخيبة الأمل ؟

ولابد انه قد وجه اليها سؤالا آخر ، فقد أحاطته في مجلة :

— سوف أقول لك حينما تعود ، إن الهن يقف بجوارى ، لا ، لا ،

ليس الأمر خطيرا فيما اعتقد .

وفاجأتها بعد ذلك اتهامان في أحد الأركان ، وكان الوجوم  
يخيم علينا في العشاء ، وأرسلوني لفراشي مبكرا على غير العادة ذلك  
المساء .

ولم يدر بخلدى وقتله انى اوشك ان افقد امى ، او على الأقل  
امى كما كنت اعرفها ، وان اى كان على وشك ان يفقد شريكة  
حياته .

وفى السابع والعشرين من اكتوبر - وهو تاريخ لن انساه  
وسيطر محمورا فى قلبى - انتقلت الى احدى المصحات الطبية  
بعد ان قبلت اختى وقبلتى ، وودعتنا باحدى مداعبتها وفكاهاتها .

ولم يكن ما ظنوه حملا فى بادىء الامر الا ورما خيشا وحينما  
مادت بعد اسبوعين لم يكن قد بنا عليها شئ ظاهر حتى خلدنا  
جميعا ومضينا نتسائل عن سبب ذهابها للمصحة ، كانت قدمات  
لطبيعتها وراحت تتحرك فى نشاط بين ارجاء البيت كسابق عهدنا  
بها . ولكننا بعد مضي فترة من الوقت بدأنا نلاحظ تغيرا واضحا  
يطرا على ملامحها ، فقد ظهرت التجاعيد فجأة فى وجهها ، وبدا  
على جسمها الرقيق بعض البدانة والترهل .  
واذكر انها كانت تقول فى تلك الفترة :

- اعلم انه بنفى ان اقوم ببعض التمرينات الرياضية ، ولكنى لا  
اشعر باى حماس .

وأجريت لها جراحة اخرى فى مارس ، وفى اغسطس كانت قد  
صارت من البدانة بحيث لم يعد اى ثوب من ثيابها يدخل فى  
جسمها .

ومنذ ذلك الحين وأنا لا أكف عن بحث حالتها مع اصدقائى  
الاطباء وخاصة مع كبار الاختصاصيين الذين يعملون فى المؤسسة  
معى ، واحتلفت ارؤؤهم جميعا ، كل منهم يعتقد انه عرف نوع المرض  
وسببه دون ان يصلوا الى قرار حاسم . ولكنهم اجمعوا على ان تلك  
البدانة كان محتما حدوثها عقب الجراحتين اللتين اجريتا لها ، وقد  
اثرتا على وظيفتها الجنسية كأمراة ، الامر الذى كانت نتيجته  
الطبيعية انهيار مفاجئ فى اعصابها وياس مرير فى اعماق قلبها .

ومع ذلك كله فلم اجد فيه مايقنعنى ، واشعر انه لم يكن كافيا  
لاقناع اى ، واذا كان قد وصل بطريق الحس والظن الى ماوصلت  
انا اليه فلايد انه كان مثال الشجاعة والاخلاص والوفاء الا ظن الى



جوارها مضجعا براحتة وسعادته وحقوقه كزوج طوال تلك الايام  
التي انقضت حتى ودعها الوداع الاحمر  
وحانت اللحظة التي اضطرت فيها للاستسلام ، ولم تحد معها  
من ان تنسحب برضاها من الحياة العامة .  
وقال اول من جاء من الأطباء لزيارتنا زيارة مفاجئة ، فقد كانت  
ترفض دعوة أى منهم لفحصها :  
- تورمنا سوف تشفى منها بمضى الوقت .

ولكنها لم تشف قط بل مضت حالتها تزداد سوءا . وراحت في  
الاسابيع الاولى تنعرد بنفسها تدفن نفسها بين جدران عرفتها لا  
تكلم احدا او تخاطب انسيا .

ومن ذلك تدرك يا ولدي ان الشبحوحة وحدها لم يكن هي سبب  
تلك النظرات الشاردة الخالية من معنى العهم والحياة ، والتي  
روعتك واخافك منها ، فقد سقنك أنا ومررت بنفس تجربتك ولم  
اكن قد تجاوزت سنك الآن ، وكأنت قد اتزوت منا بهذا في عالم  
خاص بها ، وفقدت كل اهتمام بنا أو بأى شيء حولها .

وليس من حقي ان احكم لها أو عليها ، بل لست املك الصلاحية  
التي تؤهلني لأن اكون قاضيا ، بيد اني مارلت اذكر كيف كانت  
تتملكني الحيرة ويسند بي الغضب وأنا الملح اصدقاء بر من كار  
الأطباء يقطبون جباههم ، وهم يدورون شديد تأثرهم وعمق مواساتهم  
لنا جميعا .

وفي اعتمادى ، انه قد ساءها - وهي التي كانت محط انظار  
الرجال - ان تعقد عرض الجمال الذي تربعت عليه طويلا - وربما  
اشتد بها اليأس الى حد الرغبة في ان تلامى الردى حبيما اكتشمت  
أن بعض الجراح قد حكم عليها بالشبحوحة المعجشة قبل الاوان  
لست أدري تماما .



نفضت يديها من كل شئون الدار ، ولم تعد تلقى أوامرها  
وتعليقاتها للخدم ، وكنت الملح ابى وهو يعد قائمة الطعام مع الطابخة  
كل صباح وقبل ان ينطلق لمكتبه ، وكانت تحضر في بعض الأحيان  
بعض المآدب الرسمية ، تجلس في صمت وفي وجهها نظرة شاردة

بلهاء ، وعلى شفتيها ابتسامة غريبة لا معنى لها ، وكان أبي - في  
الأيام الأولى - يضطر للاعتذار بمرضها الى معجوبه .

ومن اجلها - رفض الذهاب الى فرساي - حينما عرض عليه  
لشغل منصباً خطيراً كان سيتوج مستقبليته العظيم ، منصب مدير  
البوليس في باريس !

ولكنني اسارع فاقرو لك ، انها لم تكن مسئولة قط عن تركه  
منصبه الحكومي واعتزاله الحياة في ضاحية « لويسينيه » بين  
بجوران فيلاماجالي .

كنت انا وحدي المسئول عن ذلك ، ولم يكن لامي اى ذنب او  
يد فيما حدث او تورط عليه .

كان ذلك بسبب مأساة ١٩٢٨ التى اتحمل مسئوليتها كاملة .

\*\*\*

وربما كان من واجبي ان اشير الى وجهة نظر شقيقتي في تلك  
الحالة الغريبة التى اصابنا ، فهي تزعم انها تعرف من اسرار  
هائلتنا اكثر مني ، ولا اجد مفراً من ان اعترف لها بذلك ، معي  
بوصفها كانت تكبرنى سناً قد كان لها من الرشدا ما اتاح لها ان  
تعرف اُمى خيراً مني ، وقبل ان يطرا عليها ما اصابها او لعلها في  
الثناء وجودها بباريس قد عرفت ما لم يصل الى اذني .

حسناً ، انها تقول - تحت مسئوليتها - ان اُمى لم تتزوج ابي  
قط لانها شعرت نحوه بحب او ميل اليه . . بل لان قلبها كان قد  
يحلم اخيراً على صخرة غرام فاشل اطاش صوابها ، فاندفعت  
بدون تفكير لتلمس الياسة ، اية ياسة تعرض لها بين الانوار  
وهكلاً اقتنصها ابي ، وبرغبتها ابتعدت عن باريس مهد الحب  
والجمال منزوية من الاضواء ، كما فعل اية راهبة حينما تدفن  
نفسها باختيارها في احد الاديرة البعيدة من العمران !

- اما تستطيع ان تقدر مدى التضحية التى اقدمت عليها حين  
تركنا الحياة في باريس حيث الحفلات والسهرة وحياة  
السفارات ، لتدفن نفسها في احدى محافظات الريف مع موظف

صغير ! أنها لم تتزوج أملاً في مستقبل زاهر مشرق ، بل تزوجت  
لهرباً من ماضٍ مكروه ، ومعاً يؤكد لك ذلك أنها حينما خطبها أبى لم  
يكن قد حدد بعد مستقبله وميغان عمله ، وكان فى وعصمه أن  
يشغل وظيفة ممتازة فى وزارة الخارجية أو على الأقل منصباً ثابتاً  
محترماً فى العاصمة بلربس نفسها ، لكنها أصرت على أن يقبل تلك  
الوظيفة الإدارية فى المحافظات ، حيث تنتقل من محافظة لأخرى  
فى أعماق الريف ، وكانما هى تعتمد الانتقام من نفسها !

وحينما بدأت أحتج معارضا استطردت تقول :

— لم تكن وقت ذاك إلا طفلاً صغيراً ، تنظر الى الأمور فى  
شداجة وبراءة بلا دهاء أو حقد فى التكبر ، لم تذهب قط الى  
المآدب والحفلات التى كان يقيمها أبوك فى دار المحافظة ، حتى  
ترى كيف كانت تبدو مشحونة الطاقة ، لكنها طاقة مصطنعة ، مروح  
مفتعل يخفى خلفه مرارة مدفونة فى أعماق قلبها ، كانت تمثل دور  
المضيفة السعيدة التى تطير بشراً وسروراً أمام طائفة من المجائز  
الثروات ويتأهين العوائس ممن فاتهن قطار الزواج ! إلا أنك إذ أن  
أنها كانت تسخر منهن فى أعماقها ومن نفسها أيضاً !

ربما كان ذلك صحيحاً ، بيد أنى أعتقد — وأبحث عن وسيلة  
فى نفسى حتى أعتقد — أنها كانت تحب أبى برغم كل ما سمعت .

أما هو فقد كان شاكراً لها — مدى حياته — اختيارها وتفضيلها  
إياه دون سائر المعجبين بها وكان يعتبر نفسه مسئولاً عن توفير كل  
أسباب السعادة لها ، ويرى — والحزن يقطع نياط قلبه — أنه  
سبب ما أصابها من مرض وخيل !

وأرجو ألا يكون هذا غير مفهوم لك ، إذا قرأته قبل أن تسلمح  
بالتجربة والإيمان ، بيد أن هناك من الحقائق ما قد يبدو عبثاً  
الهضم ، ثقيلة التفسير والفهم ، وقدما كان هناك بوميسر وقلمون  
الأفريقى أو ناعسة وزوجها أيوب المصرى : بوميسر أو أيوب يسقط  
صريع المرض ، ويتورم جسمه ويمتلئ بالبثور وما تحت جلده  
الياهت بالماء العفن ، ويبدو كجيفة كريهة المنظر والرائحة تسمى

منه الناس الا حبيته فيلمون الاغريقية ، او ناعسة المصرية الضحى  
كل باعز ما تملك فى سبيل ارضائه وورعائه وتمريضه !

كذلك قررت لى شقيقتى - فى صيغة التاكيد - ان امى لم  
تجنا قط . لا انا ولا شقيقتى ، وكنا فى نظرها شرين لايده منهما !  
ضاعف من رباطها بالرجل الذى لم تشمر نحوه باى حياء

واكاد اميل الى الاحط بوجهة نظرها حينما اظقت حولى فيما  
يحيط بى ، قابدا اوتاب بدورى فى احتمال ان الحب الاموى حقيقة  
قائمة فى قلب كل ام ! لا انكر انها عاطفة غريزية موجودة فعلا ، ومع  
ذلك مائى اقطع بان كثيرا من الامهات لا يشمرن به ابدا ، او ربما  
لغتره بسطة مثل ام الحيوان حتى ينتهى دور الطعام !

والعهد ليس بعيد على تلك القضية التى شظت الراى الصام  
واثارت سخطا شعبيا اثنه بالمصافة المدمرة ، امرأة ما تزال فى  
همر الزهور قرر جميع علماء النفس انها فى حالة عقلية طبيعية  
ومسئولة تماما عن كل تصرفاتها ، فقلت وحيدها الذى لم يتجاوز  
الثالثة من سنى حياته ، لا لسبب سوى ان محبا لها تحداها ان  
تعمل ذلك لتبرهن على شدة حماه !

ولعل مما اثار عاصفة السخط والدمعة فى نفوس الناس ،  
هو ندرة وموع امثال تلك الحوادث ، حتى فى حال وقوعها فنحن  
- لاننا نتبع مفايس اخلاقية معينة - ننظر الى الجانية باعتبارها  
اما مجنونة فقدت عقلها ، او سفاحة مصاصة للدماء !

تم الم بفتح اميننا فجاء لتكشف خداع اوهام طفولتنا حينما  
تكشف حقيقة العلاقة التى تربط بين آبائنا وامهاتنا ، وتفرد انها  
ليست بتلك الظاهرة المثالية الملائكية التى تخيلناها فى احلامنا  
وفرانا عنها فى القصص الخرافية الصغيرة !

لقد لاحظت ذلك بنمسي حينما رايتك تنكمش وتحمج عن تقيل  
امك او دخول غرفة نومنا وانت بعد صغر جدا ، كنت اعرف مدى  
ما وصلت اليه اكتشافاتك وان لم يظهر ذلك على وجهك ، لان  
الطفولة البريئة والخجل القويض صنوان لا يفترقان !

## الفصل السادس

وأخيرا قد أترقت اللحظة الحاسمة حيث لا أجد مقرا من ان أحذلك من صديقي « نيكولاس » وأيام طفولتي التي يعتبر ذلك الاسم مربطاً بها أيما ارتباط ، بل رمزا وعلماً عليها ، وسوف يساعدك ذلك على فهم بعض تصرفاتي اذائك ، وتبرير كثير من الأسئلة التي كنت أوجهها اليك والتي طالما انارت غضبك !

— هل تعرفت يصاديق جديد ؟

كانت ظنوني تصدق كلها دون حاجة لان ازعج في نفسي السحر او التنجيم ! فحينما بنا في استعمال اشارات يملك جديدة عليك ، او تعبيرات ومصطلحات لم تكن تعرفها او تغير شيئا من مظهرك : طريقتك في تنسيق شعرك أو عقبك وابط رقبك مثلاً — افهم انا في الحال ان عنصرا جديدا قد دخل في اطار حياتك . وربما افاظك اني كشفت ذلك الطاريء الجديد عليك ، الامر الذي يفهم منه انك ضعيف الشخصية ، سريع التأثير بالغير برغم اني كنت أحاول قدر جهدي ان اكيف أسلتي في لباقة وبطريق المداعبة كما يفعل الاصدقاء وبلهجة رقيقة هينة حتى لا اهيج شعورك او اثير انتباهك .

وعلى عكس ذلك تماما ، كانت تفعل والدتك . فهي احرا مني واحدا لسانا ، لأنها تعتني بمبادئ مستقيمة مريحة في التمييز بين الصواب والخطأ ، وفيما ينفعك او يضرك ، ولا تؤمن بالاشياء الوهمي أبدا ، ومن ثم فهي ترى ان من حقها عليك ان تختار بنفسها اصدقائها .

وهي لا تكف ابدا من اتهامي بانني انخازل في اداء واحسانى الأبوية حيالك بترك حبل العنان لك ، وانى لأرجو من كل قلبي الا تقودك قنماك فتقع في مازق يهدد مستقبلك ، حتى لا الومع نفسي واحملها بجملة ذلك .

ولا أخفي منك اني اخشى ذلك اليوم ، بل ان مجرد التفكير فيه يخلق مناسي ويزعج احلامي ، وكلما صلب عودك واشتد ساعدك وطالت قامتك اخشد خوفا عليك ولا احسب الان كل الاناء في مثل

حالتى : اكبادهم تسعى على الأرض ومع ذلك قريبا كنت اكبرهم حسامية .

ومهما كان الأمر فلو كانت أمك مكان أبوى ما استطاعت أن تحول دور نمو صداقتى بنبكولاس ، ولا أذكر لقبه لأسباب سوفه تعرفها فيما بعد .

وقد تعرفت به بحكم الزمالة - وأنا فى ليسيه لاروشيل - حين كنا فى الفرقة الخامسة ، وظللنا ثلاث سنوات كاملة لم تمتد علاقتنا زمالة المعسل العادية التى تحدث دائما بين التلاميذ .

كان أطول منى قاما ، أحمر الشعر بجلد يديه ووجهه بقع حمراء صغيرة ، لكنه كان يمتاز بعينين قداوين باهتتين فيهما رقة وجاذبية .

وعلى خلاف ما تعتقده ، أو يظنه غيرك من الناس ، ليس مما تحسد عليه أن تكون ابنا لحافظ الأقليم وأنت بعد طفل صغير فى أول مراحل دراستك ، ما من شك فى أنه قد يترك أن تجد كل من حولك يحاف أن يلمسك النسيم ، وفى مركز منشأ ووضع فريد ، لكنك تلقى نفسك فى جو مشحون بالحد والكراهية وسوء الظن من رفاقك الصغار ، يخشون الاقتراب منك ويتحاشونك وكان بك جريا ! ومن ثم كنت ترائى - بل أن أزهو وأفخر بمنصب أبى الكبير - أبدو متواضعا وديما كالحمامة ، أكاد أعتذر عن « جرم » لا ذنب لى فيه حتى أحطم ما بينى وبين أصحابى من حواجز تحول دون خلق جو من التعامم والصداقة !

وما كان ذلك تكلفا منى أو تظاهرا ، بل هو الحياة الذى ولد منى والخجل الفريزى الذى لم استطع أن أتخلص منه حتى الآن . كنت اتوق دوما الى الانسحاب من وسط الزحام والانتكماش داخل قوقعتى ، مثلما فعلت أمى ذات يوم ، واتسحبت من الحياة العامة لعاما والى الأبد .

وكم أحب أن أصف لك شعورى ونومسه لك فى لوحة بارزة بالوانه الطبيعية، ولعلك لم تلاحظ بعد أن أول ما يفعل الطفل حينما

يتعلم أن يمسك القلم ويحاول أن يجرى به على الورق - هو أن يصنع مربعا مطلقا يمثل بيتا يفقد في أعماق لا شعوره أنه بيته الذي يملكه ، وذلك المنظر نراه دائما على شاطئ البحر حينما نبرع الصغار في بناء بيوت من الرمال ، كذلك كنت تفعل أيضا . .  
ومن ثم فإن أول ما يلتصق بذاكرة الإنسان هو البيت الذي يعيش فيه بأدق ما فيه من دقائق وتفصيل . سواء أكان بيتا ريفيا عشا أو كوخا من القش أو فيلا أنيقة أو شقة رائدة في باريس ، أو قصرا منيفا به غرف خاصة للبواب والخدم ومصعد أو درج ، وطاقوس تغطي الأرض من المدخل ، أو كان أرضا عارية من الحجر أو الملاط .

أما أنا فقد اعتدت كلما عدت من مدرستي أن أجد الباب غاصا بالشرطة يؤدون لي التحية في احترام ، وعلى جانبي الدرج لوحات إرشادية عليها اسم تشير إلى كل اتجاه :

« الطابق الأول - القسم الثاني - المكاتب الإدارية على الساحة .

« الطابق الأول - القسم الثالث - شئون الزراعة والملاحين على البمين .

« قسم المستشفيات - الإدارة الصحية - إدارة العمل - إدارة الاسكان »

« في الجهة الأخرى من العناء - الدرج رقم (ج) . . . »

فقد كنا محوطين بكثير من الإبهاء والممرات وأكثر من درج ، تهب منها التيارات الهوائية ، ومازالت ذكرى الأولى من أبي مرتبطة بصورة أحد السعاة ، وهو رجل أشيب عجوز يجلس إلى بضد صغير أمام الباب المفتوح بطبقات اللباد والمطاط .

وكان الطابق الذي نشغله لسكتنا متسع الأرجاء مرتفع السقف جدا ، وطالما سمعناهم يصرخون في : حذار أن تلوث السجادة !

كانت التقاليد تفضي بأن تغطي كل الجدران بقطع من السجاد النادر ومجموعات من الأطباق الثمينة الملونة واللوحات الزيتية الرائعة مما يليق بمقام المحافظ .

وكلها أموال اميرية لا نملك منها شيئا ، تكل اثاث البيت مملوك  
للدولة ! .

— اشيء .

وترفع مريتي سيايتها الى فمها مطهرة :

— لا ترفع صوتك ، ان السيد المحافظ يستقبل ضيوفا .

لم اكن مثل باقى اطفال هذه الدنيا ومن لهم اب وام ، احقاد  
وشقيقات ، خادم او مجموعة من الخدم والوصيفات ، كنت محاطا  
بمجموعة من الناس اكرهم جميعا ، واعتقد انهم يمارسون سلطات  
كريمة لتقييد حريتي والحد من حقوقى الطبيعية فى سماعات طعامى  
وشرايى ولهوى ونومى ، يحركوننى كالدمية اينما وحيثما شاءوا  
حتى فى سويحات رغبتى فى لقاء ابى وامى !

فتلك النعم والبركات التى كان رفاقى الصغار يحسدونى عليها  
لم تكن فى نظرى الا لعنة بغيضة الى نفسى وددت لو افر منها الى  
هالم اتمتع فيه بشيء من المرونة والحرية ! .

كل انسان ما عدانا ، وما عدائى كان له الحق فى ان يستحوذ  
على وقت ابى واهتمامه ، اولهم واشدهم جراءة هو الميسر كورنى  
مدير مكتبه الخاص ، ثم مكورتيرد الحاصر ، ويلييه مديرو الاسام ،  
وكانوا اربعة من الكرار ، ثم كبلر الزوار من الحثيثيات الذين عدون  
للمدينة ، واعضاء مجلس الشيوخ والنواب فى المقاطعة والباررون  
من زعماء النقابات ومن الناخبين واخيرا اصحاب المظالم والشكايات .

وربما اتيح لنا بعد لاي وجهد شديد ان نجلس معه مريم كل  
اسبوع على مائدة العشاء نتناول معه الطعام فى جلسة عائلية خاصة  
وحتى ذاك لم تكن نهنا به ، فكثيرا ما كانوا يطلقونه للتليفون ، فيتركه  
طعامه او ينهيه على عجل ل يستقبل شخصا ما فى مهمة سرية عاجلة .

وفى الثانية عشرة من عمرى ، كان قد بلغ ضيق صدورى من  
تلك الحال حدا كبيرا حتى كنت اشعر بعدم الرضا نحو ابى لرساه  
بدلك الذل وتلك الصبودية التى تكبله بقيود حديدية لا يستطيع منها  
تفكاكا ، والتى تحول دون ان يستمتع بحياته العائلية ، ودون ان يستمتع



به بوسنة ابي ؟ يرعائي ويوليتني تضيقا من حبه واعتماده كما يفعل  
سائر الاباء .

كان رفاقي في المدرسة يعمدونني او يقطونني على تلك  
التحيات العسكرية التي اقامها من الشرطة اينما ذهبت دون ان  
يخطر ببالهم اذمتي النفسية الخائفة التي كنت امر بها مما يجعلني  
لكثر منهم حسدا لهم .

وبطبيعة الحال يمضي الوقت ولا اشتد عودي ونضج تفكيري  
اكتسعت مدي ما كنت احيط فيه من افكار سوداء خاطئة ، وما  
اردت الا ان اصور لك يا ولدي طريقة تفكيري وانا في مثل سنك .

والاقامة في دار الحافظة فرصة طيبة تسمح للانسان حتى  
يرى كل ما يدور على المسرح من خلف الكواليس ، شاء ام لم يشاء ،  
ويمتظر بعينه كيف يجذبون الخيوط الرقيقة التي تحرك الدمي ! .

ولقد حدثتك في مرة سابقة كيف حصلت على وسام اللجئون  
دونور ، وذكرتني ذلك بمحادثة تليفونية سمعتها ذات يوم ، كان  
ابي يضع السماع على اذنه منتصتا وهو في الوقت نفسه يقرأ  
باهتمام في صحيفة منشورة امامه ، لم يكن لها ادنى صلة بتلك  
المحادثة ، وكان صوت الرجل في الطرف الآخر عميقا به رنة من  
الاحاف والرجاء .

وكان ابي يفهم من وقت لآخر ، وهو يتابع بعينه ما في  
الصحيفة .

— نعم ، نعم ، فهمت . . .

ومازلت لواه الان وهو يجري بقلمه الاحمر خطا عريضا تحت  
بعض العبارات فوق الصحيفة ، واخيرا وبعد ان انتهى الطرف  
الاخر من حديثه سمعت ابي يقول :

— اوافق انت من انه ان يرخي بوسام ( سنف النخيل ) ؟ نعم ،

نعم ، فهمت ، حسنا يا سيدي العزيز ، اتفقنا ، سوف اتقل طلبك  
للسيد الوزير طالما هذا رايتك وتعتبره هاما وتستطيع ان تعيده  
بوسام الصليب .

ذلك مثل واحد من بين الآلاف ، فما كان يعتبره الناس سرا خطيرا انما هو امر عادي بالنسبة اليها حتى انتهى في مثل منى . .

- نعم ، نعم ، وأنت انت من عدم حصول تلفيات ! سألتصل قورا بمدير الشرطة ، طمئنته يا صديقي العزيز ، قل له الا يفلق ، فسوف يتم كل شيء على ما يرام .

وكنت اعتقد في بادئ الامر ان ابى مخادع كبير ، او رجل شرير يستعمل نفوذه القوي في مرقة سسر الامور على حسب طبيعتها ، ففكرت نحوه بالنصب .

حتى بين جدران مدرستي لم يكن ضجيري مرتاجا ، وطالما ساورتني الظنون بان ما اقامه من نظرف وفاقى وتلطيم معي ليس امرا تدفعهم اليه سجيتهم بل لابد انهم مدفوعون الى ذلك من اولياء امورهم لان لهم ملتمسات ينفون تحقيقها من ابى ، وامسدت تلك الظنون الى اساندي حينما رأيت احدهم يخرج من مكتب ابى في المحافظة وقال ابى لنا ونحن على مائدة الطعام :

- مسكين هذا الشاب ! الأطباء يقولون ان هواء البحر يفسد صحته ، ويرغم ذلك يصدر مدير التعليم امرا بنقله الى هناك ! لقد وعدته بان اوصى بنقله الى سافواى كما يريد ويجب .

وآباء اصدقائى الصغار كانوا يستغلون فرصة صداقتى ، ويمتلدون بأية طريقة على تنفيذ ما يريدون وتسهيل مصالحهم من ابى ، وصرمت بحقارة شائى وضعف شخصيتى امام الناس جميعا ، فلو لم اكن ابن المحافظ ما اعلونى مخلوق فتبلا .

وكنت اشعر برغبة شديدة فى ان اصيبح قائلا : ذلك غش وخداع ، خداع !

يبد ان ابى لم يكن مخادعا كان يؤدى رسالته فى امانة واخلاص وضمير بقط ، ذلك ما اكتشفته بعد حين !

وكنت انا الباهل الاحق الذى سمحوا له برؤية ابطال القصة من خلف الكواليس ، ولم ينهم قيمة ما يؤدون من ادوار سامية بل

اكتفى بالتفرج عليهم وهم يرتدون الثياب ويضعون الساحيق  
والألوان .

ولذلك لم انكر تلك العبارة التي سمعتها يوما ما - من ان عالما  
يتألف من نوعين من الناس - فريق يؤدي رسالته الكاملة على اتم  
وجه ، وفريق آخر انما يعيش على هامش الحياة ، كأشباح تتحرك  
بلا هدف مرسوم .

وفى تلك الظروف النفسية التي اوضححتها لك التقيت  
نيكولاس واتخذته لى صديقا .  
ولم اكن قد التقيت اليه انتباها حلال ثلاث سنوات كاملة وهو  
مضى فى المربية .

فى كل مرة دراسية تملأ مقاعدها الخلفية ببعض التلاميذ  
الذين لا وطنية ولا عمل لهم الا ملء الفراغ حتى ان المدرسين فى  
أغلب المدن لا يشعرون بوجودهم ؟

وكان نيكولاس احد هؤلاء ، بطيء الذكاء فاقده الحصاس  
للدراسة ، يحل دواما مقصدا حليبا ينزوى فيه لا يضر احدا  
ولا يضره احد . فلم يكن من بين أولئك الذين لا يكاد ناقوس  
المدرسة يبدق حتى يشبوا على دراجاتهم منطلقين الى ضواحي المدينة  
او الحقول ، كذلك لم يكن من بين تلك المجموعات او الشلل التي  
تسير معا فى المدرسة فى طريقهم لبيوتهم .

ولم يسترخ انتباهى - على وجه التحديد - الا ونحن فى  
الغرفة الثالثة « الصف الثالث » حين صار هواية لا يستغنى عنها  
مدرس اللغة الانجليزية كل صباح ! ولقد علمت بعد ذلك عن هذا  
المدرس الذى فصلته ادارة التعليم لعدم صلاحيته للتدريس انه  
كان يعانى الأمرين من فظاظة زوجته ومعاملتها الخسنة له .

كان صاحبنا المدرس يخشى سخرية التلاميذ وسلطة المستنهم ،  
فلم يجد طريقة يحمى بها نفسه سوى ان يختار من كل صف تلميذا  
بليدا ضعيفا الشخصية يجعله ضحيته طوال العام ، ليجسمه  
درسا لجميع التلاميذ حتى يثبت فى قلوبهم الخوف ويدفعهم الى  
احترامه طبقا للمثل المعروف اضرب المربوط يخف السائب .

لقد كنت حصة له كنا نشهد قولا بينه وبين نيكولاس ما كنا  
انتمعه لظول ما اعتدنا ، وظل الصبي الصغير واقفا على نفسه  
وقد احمر وجهه والتهبت افئدة .

وعرفت من ملاحظات المدرس ان ام نيكولاس كانت تفتح متجرا  
ليبيع فيه كل ما يلزم الأطفال قبل الفطام من « القصاري »  
والناشف والمفارش ، الامر الذي كان يبعث على التكات السفينة  
والتعليقات الرخيصة من استلانا المحترم ومن جرى على شاكلته  
من التلاميذ .

وعرفت ذلك المتجر ، وكان في شارع « جيتسو » بين محل  
لقصاب اعتدنا ان نشترى منه ما يلزمنا من اللحوم ، ومتجر لبيع  
الأدوات الجلدية ، وصرعان ما كنت اهود من ذلك الطريق بصحة  
نيكولاس في اغلب الأيام .

وكان ابو قد مات بين جدران مستشفى المجذازيب ، وهو  
شخص برغم انه كان يبدو اقوى منى واكثر بدانة كان قد امضى  
عامين يعالج من مرض في صدره في إحدى المصحات الجبلية مما  
يجعل امه تخشى عليه من التعرض لاي تيار هوائي ، وتزعم ان  
اصيب بلمسة برد ، كان قد سمع وقاسى طويلا من المرض مما  
يجعله يتمنى من اعماقه بل عقد العزم فعلا على ان يصير طبيبا .  
وكان يضيف : هذا اذا استطعت ان اجتاز اختبار البكالوريا  
طبعا ! .

كان يقولها في شبه ياس لعدم ثقته في نفسه !

ويقول ما كان طويلا عريضا كانت له نحيلة القوام ، ضئيلة  
الجسم ، شاء القدر ان تتوكل وهي بعد في ديسان شبابها ، فمضت  
تكتسب قوت يومها في ذلك المتجر الصغير من أدوات الأطفال  
ولوازمهم .

وكادت تطير من الفرح والفران بالجميل حينما عرفت انني  
قد اتخلفت ابنها رفيقا لي ، ولم تنس قط ان ابي هو محافظ الاقليم  
مما جعلني احمر بدمي الارياح .

ومما ضاعف لرتبالي انها ما تكاد تراثي احضر بروقة ابنا  
لعمل الواجب المدرسي معا ، حتى تهول الى نصف الدكان الخلفي  
وتسرع بتنظيفه واعداده حتى يبدو في مظهر لائق !  
- يخيّل الى انك جوهان يا مسيو آلين !

واقضى الامر شهورا واضطرت لن احدث نيكولاس مرارا حتى  
كلفت والدته من ان تدعوني بلقب «السيدة» ومع ذلك كانت تفعل !  
لذلك مكروهة ولم تستطع ان ترفع التكليف معي قط .  
- لقد شاهدت الأنسة لافرسوا تمر من أمامي نوا مع بعض  
صديقاتها الصغيرات ، يا لها من شابة جميلة ! وما أروع لباسها  
أيضا .

ولم اثار قط بشخصية نيكولاس لانه كان فافدها وغافد الشيء  
لا يعطيه ! كان مثل أمه راغيا أخلا نفسه بالقناعة والانسلاخ ،  
ياخذ الحياة كما هي دون تبرم او احتجاج حتى تلك المعاملة الشاة  
التي كان يلقاها من مدرس الإنجليزية لم تكن تثير فيه أي شعور  
بالضيق او الغضب على كرامته !

واعتقد انه كان سعيدا ، واكبر الظن انه ما زال كذلك في قرية  
شارنتي حيث قيل لي : انه الآن طبيب ناجح ، وقد ضم الى جانب  
والدته لتقضى معه أيامها الأخيرة في هدوء .

- اتسمح لي بأن أسالك يا سيد نيكولاس : فيم نحلم الآن ؟  
وامتطيع ان انخبله جالسا الى قنطرة بجوار النافذة وقتا  
فاجاء الأستاذ بسؤاله فانتفض ملعورا ، وراح ينظر حواليه في  
بلاهة وارباك ويغمض .  
- آسف يا سيدي !

وكان الوحيد الذي لا يناديه المدرس باسمه مجردا من بلية  
السخرية .. طبعاً ..

وعلى أية حال فقد كانت علاقتي به طيبة ، وتوثقت صداقتنا  
قسيئا فقيسيئا ، واتسحت من المجموعات الأخرى ولم أكن في  
الحقيقة انتمى لأية منها ، ولم يعد لي بين الرفاق صديق سواء  
وظلت علاقتنا معا فترة طويلة .. حتى عام ١٩٢٨ ، ومع ذلك فليح

أشعر قط طوال هذه المدة ماني في حاجة لأن أشركه في تفكيري  
أو ابنه أسرارى أو أفتح له مقاليد قلبي .  
كل ما كنت أبتغيه ، صديق أحنه ونما أريد ، أفضى معه سريعات  
فراغى دون أن يتضايق أو أثقل عليه بصحبتى .

\*\*\*

كنت وعتد - غير مؤمن بوجود أى نوع من الصداقة الحقيقية  
لطول ما شاهدت من نفاق فى المحيط الذى كنت أعيش فيه . . .  
وكثيرا ما كنت اسمع أبى يتكلم فى التليغون :

- مرحبا بصديقى العزيز ! لا ، لا ، أرحوك ألا تكلف نفسك عناء  
الحضور ، بكفى أن تبحث أى إنسان الى مكتبى صباحا ، ستكون  
الأوراق جاهزة ، نعم ، لحت أمرك أبها العزيز !

شمة فريق من الناس كل الأمور ميرد لهم ، وحوالهم  
مقضية حتى دون أن يجشموا أنفسهم عناء السعى وراءها على حين  
كانت دهاليز المحافظة وأبهاؤها تبدو أغلب الأحيان مزدحمة  
بالعجائز من السيدات القرويات اللاتى يتعلقن بأعذاب أى شخص  
يهر بين متسائلات :

- هل تخبرنى يا ولدى ؟ أين أستطيع أن أحصل على معاش  
شيوخى ؟

وقد ترى خارج الأبواب الأخرى طوابير طويلة من الرجال ،  
ثيابهم رثة وذقونهم لم تطق ، وكذا بعض النسوة يحملن هياكل  
تجيلة يمسها أطفالا . . . برزت عظامهم وجفت جلودهم فقرا  
وأملقا . . .

وما كنت ألوم أبى على ذلك لكنى لم أكن فخورا بمنصبه أو  
بمضى ما يجمع بين يديه من نفوذ وسلطات وأنا أراه يبدى شديد  
اهتمامه بطراز خاص من الناس ، يتسم لهم ويناديهم بقوله :  
« صديقى العزيز » عبارة كانت كالقذى فى عيني لطول ما كرهت  
سماعها ، وقد يدعوهم أحيانا على المائدة يشاطرهم الطعام !  
وفى تلك الأيام كانت فى لاروشيل شخصية بالغة الأهمية ،  
تحمل اسم « بوريل » لعبت دورا هاما فى مأساة عام ١٩٢٨ ، ومن  
إجل ذلك أراى مضطرا لأن أشير إليه فى حديثى .

وبالرغم من أن ذلك الشخص لم يكن موقفا رسميا ، وبلا أية  
ههادة أو حرفة . فقد كان وحده بمثابة قوة معارضة هائلة لمرفق  
مشروعات أبى وتقتض مضجعه ، وكان يى شعور خفى بأن أبى  
يكتره من أعماق قلبه ، ومع ذلك يحاول عشا مهادنته وملاينته بلا  
نتيجة بتاتا .

والد كان أبوه صائد سمك بسيطا ، فقد بدأ حياته فى البحار  
وعمل ربانا لأحدى السفن التجارية المملوكة لبعض الأهالى والتي  
لستحدم فى نقل الفحم الى أنجلترا ، ولست أدري : ما الذى حدث  
تماما ؟ لأنى لم اهتم ببحثه فى ذلك الحين ، وكل ما أعرفه أنه ارغم  
ذات يوم على تقديم استقالته .

وكان فى الأربعين من عمره ، فمضى بقصى ليله ونهاره على  
شاطئ البحر وفى سوق السمك بمرقا باليس ، وعلى المقاهى  
المحيطة بالميناء وخاصة « عند أميل » حيث كانت له مائدة خاصة  
فى أحد الأركان بجوار النافذة ...

كان يدين الجسم بضع الشعر قليل العناية بشبابه أو هندامه ؛  
وحيثما أبصرته عيناى أول مرة بعد أن سمعتم يذكرون اسمه فى  
يتنا كدت أصعق لمظهره البريء ، فلم يكن يبدو عليه أية شراسة  
أو فظاظة فى الحلق ، كان فى منظره ما يذكرنى بصديقى نيكولاس ،  
من المبتئين الزرقاوين بما فيهما من طيبة ودعة لولا أنه كان يضع  
هويئات سمكة عدساتها غليظة كأنها تلسكوب .

وليس من السهل على المرء أن يحدد الدور الذى كان يلعبه  
برويل فى الحياة العامة وفى السياسة المطبوعة من غير أن نذكر ما  
كان يطلقه عليه كلا الجانبين معا : الجانب الذى يؤيده ، وذلك الذى  
يعارضه ، من الشائعات .

الحماة القانون والنظام ، الحكومة والمحافظ ، أصحاب السفن  
والناس من امثال والدته نيكولاس يقولون : أنه فوضوى خطير ، رجلا  
لا يحلو له الصيد الا فى الماء العكر ، اراهى أتيه يجد لذة كبيرة فى  
إثارة القلاقل والتضيق .

وحتى أفراد هذه الطائفة يصترفون بأن ما يبدو عليه من طيبة

وبرادة ونبل : ليس الاستلوا لا يخفيه في نفسه من ذكاء ودهاء  
الشياطين ، وعقلية قانونية مأكرة كثيرا ما هددت الأمن ووضعت  
الأجهزة الحاكمة في وضع حرج بالغ الدقة .

أما الباقون فهو في نظرهم يظل قلما بجود التاريخ بمثله ، جمع  
بين الثقافة والتجربة ، وكل منصبه في قيادة مابرات المحيط ليقود  
نصبه نحو النصر ، تواضع وتدلى من مكانه السامى ليجلس بين  
أهل قريته ومواطنيه وذراعه مفتوحان لهم يضمهم بين أحضانه ،  
ينصت الى شكاياتهم ومظالمهم بأذان مصفية وإمعة ، ولا يتوانى أبدا  
في بلل المعونة والنصيحة بلا مقابل !

ورث من أبيه نصيب الثلث أو الربع في بعض قوارب الصيعة :  
ولم يكن ذلك كافيا أو لقيم أوده ، فقد كان زوجا ولديه ثلاثة أو  
أربعة أولاد ، أحدهم دخل الليسيه في السنة التي تخرجت فيها :  
وكان يسكن في بيت صغير وسط فضاء كبير من الأراضي  
المهجورة .

من أين كان يحصل على المال لينفطى نفقائه ومصروفاته ؟ أين  
صندوق اتحاد عمال البسواخر الذي كان يتزعمه بطريقة غير  
رسمية ؟

وبالإضافة الى عمال البواخر في لابلانس ، ورجال شحن الفحم  
في المرفأ ، امتد نفوذه أيضا الى جميع صيادي الأسماك في أعالي  
البحار حتى قبل : أنه كان في وسعه - بإشارة خفيفة من يده أن  
يحدث اضطرابا شاملا في جميع وسائل الشحن والتموين والصيعة  
لو أراد !

لم أعلم بكل ذلك إلا قبيل معركة الانتخابات الأخيرة بفترة  
وجيزة حيث رأيت أبي يستقبله بعد العشاء عدة مرات في مكتبه :  
وكان في كل مرة يخرج من لقائه قلما مهموما ، هل كنا بمقدار  
أنفاقا ؟ - وهل كان أبي - بوصفه ممثل الحكومة - يشتري حياض  
الرجل ؟ والى أي مدى ذهب في محاولة اقناعه ؟

لست أدري عن ذلك شيئا يا ولدي ، لا أكثر مما تعرفه أنت  
عن أسرار عملي .



وكلما امتد بالإنسان العمر ، وحنگته التجارب أغشيت أمام  
أبصاره آفاق كانت من قبل غوامض مجهولة لا يستطيع لها أدراكا  
أو تفسيراً .

وكلما تذكرت « بوريل » تمثل في خاطري شخصاً خرافياً  
تتناقله الأساطير ، ومزا يخلد قصة الثروة والنضال ولذلك كنت  
أكن له في نفسي قدراً من الاحترام .

وارجو الا تسيء الفهم ، فما كان لي شأن بما يدور ، ولم أكن  
أجى من تسمح لي بإبداء آرائي علانية ، أو الانحياز الى فريق دون  
فريق .

كان ابي يمثل السلطة التي تحكم ومن بعده السيد كورنير ، ثم  
العم فاشيه بعد ذلك بفترة طويلة . وما يتبعهما من جهاز اداري  
يمثلان السلطة التنفيذية ومن خلفهما اصحاب المصالح الذين يؤيدون  
النظام رغبة لمصالحهم وخوفاً من زوال نفوذهم ، ومن ثم يحرسون  
على بقاء الأحوال كما هي .

ومن وراء كل هؤلاء يقف أمثال والده نيكولاس ، بيتها الصغير  
النظيف وخلف متجرها البسيط الذي يبيع فيه لوازم الاطفال -  
يمثلون الطبقة « الطبية » من الناس يطعمون دون مناقشة لانهم  
جبلوا على الطاعة .

ولا تعجب اذا علمت ان الأمور كانت تختلط في راسي بالرغم  
من اني كنت أميش وسط الدائرة التي تحترف السياسة وتناقش  
بعمق وصراحة أمامي كما كان بين ضيوفنا أعضاء الشيوخ والنواب  
أو زعماء النقابات والبارزون ، ومع كل ذلك فما كنت أهتم بتمييز  
طائفة دون أخرى .- أو أصني يبحث اسباب الخلافات التي كانت  
تصنع هوة عميقة بين اليمين واليسار حتى الموضوعات السياسية  
التي كانت الصحف تفرد لها اعمدة طويلة لم تكن تثير في نفسي أي  
فضول ، بل تبحث فيها الملل والضيق .

ولكنني كنت عدواً للحركات الانقلابية الثورية التي تهدف الى  
تغيير أي نظام استقرت رواسبه وعدمه ، وفي الوقت نفسه كان

قلبي دائما في صف المحكومين اكثر من الحاكمين او اذا شئت سراحة  
أوفر: مع المظلومين لا مع الظالمين ١.

وكنيت اشهر بارتياح عميق لصداقتي بينكولاس ، وربما كان من اهم اسباب ذلك انه لم يكن يحضر انفه او يسال عما لا يعنيه ، لم يهتم قط بالسياسة او بالمعركة الانتخابية التي امتمر اوامرها وقت ذاك ، ولا يفكر الا في امل وحيد يشغل باله ، هو حصوله على البكالوريا التي كانت بالنسبة له حطما بعيدا ، ومعجزة كبيرة مسيرة المال والتحقيق ! فاذا ما حطم ذلك العائق العتيق انطلق الى دراسة الطب في بورديو التي تقيم فيها احدى عماته ، ثم يستقر نهائيا في احدى ضواحي لاروشيل يمارس عمله دون ضجة ، لان امه كانت تحلم بقضاء آخر ايامها بين اجضان الريف .

وكان قلبه الكبير يتسع لحب الناس جميعا ، ينظر الى الدنيا من خلال منظار وردى بهيج .

وربما كان سبب فرحه وسعاده وتفاوله انه امضى جزءا من طفولته ممزولا في مصحة صدرية بين الحياة والموت حتى اذا ما كتبت له النجاة شعر كانه ولد من جديد ، وأن الله قد بعثه مرة اخرى « كان كاثوليكيًا » ، وكلما وجد من وقته فرصة من فراغ كل صباح هرول الى الكنيسة ليعضر القداس .

وكما لو كان بيننا اتفاق مشترك ، فلم تكن لتحدث أبداً في  
الياسة ، أو الدين ، وإن كان قد أبدى لي دهشة ذات مرة من  
أنني لا ادخل الكنيسة أبداً إلا لشهود حفل زفاف أو جنازة .



وارتدينا السراويل الطويلة في وقت واحد ، وكان ذلك بحادث في وقت متأخر مما أنتم عليه الآن . وشرينا سيجارتنا الأولى مما هو في تكلم شديد وفي خفية عن والدته التي كانت تنهأ عن ذلك ، وأنا علانية لأن أبي لم يبد اعتراضا !

وشرنا بقدر متعادل من الاضطراب وخيبة الأمل ان لم اقل  
بكثر من القرف والاشمئزاز ولكننا لم نتحدث ابدا في ذلك الموضوع  
.. وحينما انطلق الى هناك مرة ثانية - فقد ذهبت بدوري مرة

لأخرى وسمعتهم يذكرونه ، انطلق بمفرده دون ان يخبرنى او يطلب  
منى مرافقته ..

ولقد كان لك فى العالم الماضى صديق ذكرنى مرآه نيكولاس ،  
هو ذلك الفتى الذى دعوته باسم فرديناند والذى قلت لى ان اياه  
قصاب خنزير ، الأمر الذى سبب صدمة عنيفة لوالدتك ، وقد  
حضر مرتين او ثلاث مرات لزبولتك ، ولا اشك فى انكما خرجتما  
معا فى تلك المرات ، ولكنك لم تعد تذكر لنا عنه شيئا كما اعتدت  
دائما مع اصدقائك الكثيرين .

هل كان أبى محقا فى شعوره بالقلق ؟ وهل كان نيكولاس حقا  
طرازاً رديئاً من الصبيان ما كان ينبغي لى ان اصادقه او اماشيبه ؟  
كان أبى يعرف من اصدقائى وما افعله اكثر مما اعرفه انا عنك ،  
ولا اعنى انى ألومك على تكتمك اسرارك .

وكنت بطبيعة الحال اخشاه واحابه اكثر مما نهأبى أنت الآن ؟  
ولكنى كنت افهم واقدر اضطرابه لأن يتخذ معى مواقف معينة فى  
بعض الاوقات حينما اتجاوز حدودى او يسد منى ما لا يليق من  
من التصرفات ، دون ان اشعر باى ضيق او غضب ، بل كنت اتألم  
من اجله ، لشغنى بأنه انما يفعل أمرا كريها الى نفسه ولا يقصد الا  
الخير لى ، تماما مثلما يحدث معى الآن حيالك .

كذلك كنت اشعر بالأسف والحزن عليه ، لأنه حتى فى الفترات  
الوجيزة التى كان يحتفلها من عمله المقتنى لبوتاج فيها لا يجد  
أمامه الا نظرات أمى المشدودة الى الإمام ! وكنت أحسده على سعة  
صدره وحسبه العجيب .

كان يذهب مرة كل شهر الى باريس لأعمال يتجزها فى وزارة  
الداخلية ، وبعض الوزارات الأخرى ، وكثيراً ما كان يمكث بها  
يومين أو ثلاثة .

هل كنت له صديقة معينة يتردد عليها فى تلك المواميد .. اما  
تراه كان يترك ذلك للمصادفات وحدها ؟  
ومن المفهوم طبعاً انى لم أسأله أبداً ... وغم انى متأكد الآن

من اتى لو سالته لاجابنى بكلّ مراحة وصفق كما تراتى افضل  
بنفسى ذلك .. لو كنت مكانه .

وكانت لنا بعض لحظات المودة والالفة ، تتبادل فيها بعض  
الاحاديث القصيرة مساء كل يوم تقريبا مثلما افعل أنا وانت احيانا  
ما هذا اتنى انا الذى كنت لزوره دولما واسمى اليه فى غرفته .

وكان الطابق المخصص لافامتنا فى المحافظة متسع الأرجاء مديد  
الغرف والابهاء ، تشغل اختى منه سواء قبل زواجها أو بعده - طرفا  
بعيدا يطل على الفناء الثانى الخلفى ، اما غرفتى فكانت على الطابق  
الاسفل . ولم يكن لدينا غرفة عائلية صغيرة للطعام ، فكنا نستعمل  
المائدة الكبرى المخصصة للمأدب الرسمية والمجاورة للصالون الكبير  
حيث تقام حفلات الاستقبال والرفص .

وحين كنا نخلو لانفسنا ونتناول المشاء - الأمر الذى كان  
يحدث مرتين أو ثلاث مرات كل اسبوع : كان مقدنا خمسة حوّل  
المائدة الممددة لجلوس عشرين .. بفصل بين كل فرد وآخر فراغ  
كبير - أبى وامى ، وشقيقتى وزوجها ، وأنا . وشدا ما كنت اشفق  
على الساقى ( فالتبن ) الذى كان يتعب لطول المسافة فى توصيل  
الاطباق البثا .

وما زلت اذكر تلك القاعة التى كنا نجلس فيها للطعام وتلك  
« النجفة » الضخمة ذات الخمسين مصباحا كهربيا أو اكثر معلقة  
فوق رؤوسنا والتى لم تكن تضاه قط الا فى المأدب الرسمية .  
وتكتفى بزوج من الشمعدانات على طرفى المائدة الكبيرة ، بكاد  
يكفى لتعرف ما فى المصون امام حينك ، على حين كانت تسبح  
الجدران وباقى الغرفة فى الظلام وعلى الحائط المواجه لمكانى  
مباشرة فوق رأس شقيقتى سجادة باهتة اللون تستطيع بصعوبة  
بالفة تمييز رسوم بعض الفزلان ، ترمى العشب حول قناة جارية .

وكانت لوحة كبيرة معلقة على الجدار تمثل فتاة ترمى  
مجموعة من الاوز ، وما زلت ارى فى خيالى تلك الاوزة الضخمة  
البيضاء التى انفردت من شحقاتها فى مؤخرة الصورة ، وبلدت بارزة

وسلك الاطوار الالامع العريض كانتا اوزة ناضجة تحتل طبقا كبيرا  
خضري باكلها !

ونحن - فى شارع مالمهرون - لدينا من يقف على رءوسنا فى  
الثناء الطعام بلوى طبيائنا ، ولكن ما يكاد الخادم يقدم الصنف حتى  
ينسحب ويتركنا فى هدوء حتى نستطيع ان نتحدث كما نشاء .

بيد اتى - فى طفولتى وصباى - ثم اجرب هذه الحرية فعد  
فكنت اشعر دائما بذلك الساقى الاسمر ذى الثياب البياض  
والسروال الاسود والكتفين العريضتين والوجه الصارم كأنه تمثال  
من البرونز . كنت اشعر به دائما خلفى يتحرك بخفة القبط حاملا  
بين يديه المظالمين بالقفاز الأبيض نوعا من الطعام .

وربما استغرب بعض اصدفائك ممن كنا ندموهم للطعام ، حينما  
يشاهدوننى اعد المقعد لوالدك لتجلس عليه امام المائدة قبل ان  
أغفل مقعدى بجوارها فتلك عادة تعلمتها من ابنى الذى كانت من  
أحد واجباته الا تنومه ولا يففل منها ابدا .

وهناك كانت تجلس ابنى دون ان تخفض عينيه لتعبر من شكرها  
ودون ان تبتمس ! وكانت احدى ملكات العصور الوسطى تتقبل فى  
عظمة واستعلاء ضيافة أحد رعاياها ومبيدتها المخلصين ثم تاكل فى  
صمت لا تشترك ابدا فى اى حديث او مناقشة !

وفى اغلب الاوقات كان الحديث مقصورا على نقاشيه وحقيقتى  
وكثيرا ما كان ابنى - حين يتضابق من السكون القاتل او لا يعجبه  
ما يدور بين ابنته ولزوجها - ينظر الى قائلا :  
- وانت يا ولدى ، ماذا فعلت اليوم !

وذلك حتى يغير موضوع الحديث الذى اخذته نقاشيه الذى  
لكنت اعتقد دائما أنه يعتمد فيه الالة ابنى فسواء كان يتحدث فى  
الفنون والآداب او فى الفلسفة او الموسيقى او فى القانون او علم  
الإدارة او حتى فى « المودة » فى النيب او الانث - كانت آراؤه  
دائما معارضة لآراء جدك ، وكأنه يجد لذة فى تنفيذه والوقوفه  
الى وجهه !

وأكد أقسم أن علاقته بشقيقتي التي انتهت بزواجه منها لم تبدأ داخل مبنى المحافظة ، فلم يكن لنا أي احتكاك بالوظفين ما عدا قلة يعدون على الأصابع ، مثل السيد تورنر الرجل العاقل الرزين مدير المكتب الخاص ، وهكتور لوازو السكرتير الأول ، وأحيانا مع سكرتيرة أبي الخاصة المعوازل يونوم .

ولا بد أنهما تلاقيا في المدينة ، وقد دفعه طموحه إلى أن يتخطى الكثيرين ممن هم أكثر منه سنا وخبرة وأرفع منه منصباً ، ولكنه كان يعلم ويؤمن بأنه يستحق ذلك وأكثر منه أيضاً فاستأنف قفزانه إلى الأمام .

فهل أدرك أبي فيه ذلك الطموح وشجعه عليه ، أو تراه حينما وافق على زواجه ومصاهره كان مدفوعاً بمبدئه الذي لا يبعد عنه في عدم التدخل في حياة الآخرين حتى لو كانوا أبناءه ؟

ولو حدث مثل هذا الزواج في محيط أبة أسرة أخرى ، ما حال ضيق يد الزوج من أن يخرج هو وزوجته ليقبما بعيدين عن أسرهما ، ولكن فاشيه الماكر الذي يخطط للمستقبل ، قد وجد مصلحة كبيرة في أن يظل مرتبطاً بأسرة المحافظ في نظر الخاصة والعامة حتى يظل دائماً في الصورة ، وحتى تفتح أمامه جميع ابواب المجتمع اگرأما لخاطر حاكم الإقليم !

ولو ظلت أرييت - حتى بعد زواجها - متضمة أليتا فلما وغالباً - كما كانت وهي بعد فتاة ، ما كانت هناك مشكلة في محيط الأسرة ولكن الذي استرعى نظري - وكنت لم أجاوزه بعد منك الآن - هو أنها كانت - وبين كل يوم وآخر - تزداد عنا بعداً لتنضم جسماً وروحاً إلى زوجها !

وكنا حتى لحظة زواجها ننظر إليها كأي فرد من أسرة لا فرنسوا بل لقد كانت أكثر اتصالاً وارتباطاً بأبي منى صداقة ومودة ، وكثيراً ما كنت أراها على المائدة يتبادلان النظرات والابتسامات الأمر الذي يدل على المشاركة في الفكر وأتتهما كنا يتحدثان طويلاً في الفة وتفاعم .

ولكن ما كاد فاشيه يدخل فى حياتنا - خطيبا لها - حتى بدأت  
أرليت تنفر تماما فى طباعها وطريقة حديثها حتى الطريقة التى  
كانت تصفف بها شعرها !

ولعل أكثر ما أثار دهشتى ان نظرتنى فى الحب قد انقلبت واسا  
على عقب وأنا ارى الطريقة التى بدأ فاشيه يعامل بها اختى ! لم يكن  
يتعلقها أو يسعى لأرضائها قط ، بل كانت هى التى بدأت - بعد  
لماييع قليلة - تعمل على تلبية طلباته وأرضائه فى مذلة وخضوع  
تخشى عليه من النسيب حتى لا يجرح خديه ! لا تشكو أبدا مهما أساء  
« الإتيكيت » وقواعد الأصول فى معاملتها .. كما يحدث كثيرا مع  
محدثى النعمة .

وبعد ان نشر مجموعة من القصائد فى عدة مجلات مختلفة بدأ  
يكتب قصة طويلة وكانت أرليت تسهر طوال الليل لتكتب له على  
الألة الكاتبة وهو يطل عليها :

« على المرأة ان تكون مرآة لزوجها تنعكس عليها طباعه  
وشخصيته » .

وكان أبى يصفى فى صمت ، وربما قطب حاجبيه عموما فى  
بعض الأوقات أو ينسم متعجبا وهو يرى ابنته سبلة اسرة  
لافرنسوا بلبل طافتها فى خدمة زوجها بكل الوسائل على حين أنه  
يتقبل كل ذلك كأنه حق من حقوقه !

كان موضع حسد من زملائه موظفى المحافظة لأنه استطاع ان  
يفوز بابنته ، فشاء ان يتم مركب التنص فى نفسه فتماذى فى  
اظهار عدم اكترائه بذلك النسب ، وكاننا نحن الذين سمعنا اليه  
وكاننا هو الذى أولانا شرفا كبيرا حينما تواضع فصاهرنا !

ومن امثلة ذلك أنه كان آخر من يجلس الى مائدة الطعام حتى  
نضطر جميعا الى انتظاره ، وكان يحضر مرتديا روبه المنزلى وبدون  
ربطة عنق ، منتعلا فى قمميه الخف الذى يستعمله فى غرفة  
النوم .

وينظر الى زوجته وهو ينفخ من أنفه فى استياء !

- هلا تركتموني نصف ساعة أخرى حتى أتنهى من الامام  
الفصل !

وهو يقصد بذلك أن يظهر اشمئزازه من نمكتنا بتقاليد المائدة  
ويعبر عن نفوره من المواعيد التي جلدناها لتناول الوجبات !.

واذا كانت السنوات الطويلة لا بد أن تترك أثرا على كل انسان  
يظهر عليه بوضوح كلما تقدم به العمر ، فان قاشيه - من دون  
الناس جميعا لم يطرا عليه اى تغيير ، لم يزد وزنه دوهما ولا حجه  
قمر اطا عما كان فى صدر شبابه سوى أن الدهاء والمكر وخبثا  
الطوبى التى كان يكتنزها فى أعماقه بدت أكثر ظهورا فى حينه  
وحول فمه !

كان يذكرنى بذئب مجور فى حركاته ترقب وحذر ، ويتأهب  
هاتما للاتقضاض والفتك بأية فريسة يسوقها سوء الحظ بين  
أنيابه !.

حتى قصصه التى لا احبها وان كنت اعترف بانها قوية ومحبوبة  
الأطراف - تؤكد روحه الهجومية ورقبته المدفونة فى التشنفس  
والانتقام ، اما مقالاته التى تتسم بالتهكم اللاذع والنقد المسموم  
الهدام والتى تعرد لها بعض الصحف اعمدة خاصة - فهى التى  
اكسبته الشهرة واحترام الناس ودهبتهم .

وبعد العشاء يثب واقفا يكاد يقلب مقعده فى وفاحة قبل أن  
يقدم الساقى اطباق الطوى وينتهى العشاء ويسود لاستئناف عمله  
لم تنبه اخنى بعد فترة قصيرة وتنطلق امى الى فراشها مبكرة اما  
ابى فيخادر الطابق المخصص لسكنائنا ويلهب الى مكتبه الرسمى  
ليزاول عمله فترة المساء .

وقد يعتقد الناس جميعا كما كنت اظن وقت ذاك انه يراول  
أعمال وظيفته ، يقلب بين الاضابير والملفات التى لم يتسع وقته  
ليبحثها خلال النهار بسبب دخول وخروج مديرى الادارات والاقسام  
ودنين اجراس التليفونات .

بيد اتي اكتشفت انه كان فى تلك الساعات المتأخرة من الليل  
ولم يلى ذلك المكتيب القابع فى نهاية الممر الطويل بين مكاتب الوطنيين



التي خلت منهم ، كان يخلو نفسه ويطلق عليه باب مكتبه يستمتع  
بلحظات ممتعة يشبع بها هواية خاصة بعيدة عن روتين العمل  
اليومي .

وكانت القراءة افضل هواياته واحبها لنفسه ، ينكب على  
لكتابه وقلمه الأحمر في يده يضع خطوطا تحت عبارات بأكملها  
ويضيف على هامش الصحيفة تعليقاته الطريفة وانطباعاته النفسية  
بخط جميل دقيق .

وكان ذلك من بين الاسباب التي جعلتني اتمسك بتفانٍ الكتب  
التي خلعها أبى ، حتى لا تقع بين يرائل ذلك اللئب فاشيه مهما  
كانت النصائح !

وكنت حالما أنتهى من اداء واجباتي انطلق الى أبى لآلى عليه  
تحية المساء ، وبالرغم من انه لم يكن يبيتنا فى معظم الاحايين الكثير  
مما يقال فقد كانت تلك اللحظات من اسمه أوقالى ، أفتح باب مكتبه  
الخارجى المبطن باللباد والمطاط وشرائح النحاس الالامع . ثم اطرق  
الباب الداخلى فى رفق وادفمه دون أن انتظر جوابا ، وهناك يجلس  
أبى بجوار المدفأة المتأججة نيرانها شتاء ، أو بجانب النافذة الكبيرة  
للفتوحة على الفناء الخلفى سيفاً يدخلن سيجارة فى تلك الساعات  
الليل ، والى الآن ما تزال رائحة التبغ تنبث فى أنفى ، وما زالت  
سحب الدخان الزرقاء تبدو أمام عيني وهى تدور فى حلقات حول  
ضوء المصباح ذى المطاء المظلل والقابع خلف مقعده .

ويستدير نحوى قليلا وهو يفهم :

— هل هذا أنت يا ولدى ؟

واقف بجوار المدفأة شتاء أو بجانب النافذة سيفاً دون أن آلى  
بحركة أو انطق حرفا حتى يتم قراءة القطعة أو الفقرة التى كان  
عشقرها بها .

وفى النهاية يرفع رأسه ويرمقنى قائلا :

— حسنا ؟

والآن وبعد ان صرت أبى اعلم يقينا انه لم يكن يقبل عنى  
اضطرابا وحيرة !

— هل استذكرت جيدا ؟

— نوعا ما .

— اسعدي أنت ؟

ولم يكن حديثنا — فى اكثر الاوقات — يزيد كثيرا عن ذلك ؛  
فانحنى فوقه وكتابه منشور على ركبتيه ، واطيح قبلة خفيه على  
جبينه ثم انطلق الى فراشى ، وربما تبادلنا شيئا من مجريات الامور  
فى ذلك اليوم .

لم يكن من طبعه استدراجى او محاولة الكراهى على الاضواء  
بما اعتقده فى نفسه سرا .

وفى ليلة ما حينما ذهبنا القى عليه تحية المساء ارانى نقرة فى  
كتاب كان منهمكا فى قراءته .

« فلما يصل الأبناء الى حقيقة حب الآباء لهم وورغبتهم الحاصلة  
فى تقديم النصيحة الصادقة ، ألا بعد أن يتجاوزوا المرحلة التى  
يحتاجون فيها فعلا الى النصيحة والارشاد ؟ »

ولم اصل قط الى تفسيره اسم ذلك الكتاب او حتى اسم  
مؤلفه ، كذلك لم اسأل طبي عنه حتى لا اقل من قيمة الرسالة  
العامة التى كان يوحى بها الى والتى يحيل الى انه ربما ترك كتابه  
مفتوحا عندها حتى اصل واقراها بنمسي . .

والجميعه التى لا مرء فيها اننى لم ادرك قط اى دور لعبه ابنى  
فى حياتى . ولسوف يستمر اثره باقيا خالدا فى نفسى حتى بعد  
مئاته الأبعد فوات الأوان .

كان يحاول دائما ان يعلمنى كيف نتحاطب بلغة العيون تماما  
كما كان يفعل هو حين يرمقنى بنظراته العاصفة ، يستشف ما  
يدور برأسى . وبقرا ما يخلج بين جوانح نفسى دون حاجة الى كلام  
او حديث ، ومن ذلك انى فهمت حينما رأيت الحزن فى نظراته ذات  
يوم انه قد حدى يأتى اميل الى الجانب الذى يقف فيه خصمه  
بوريل ، وان فى نفسى ثورة عارمة ضد أولئك المحكومين الذين يقبلون  
الخنوع ويدينون بالطاعة العمياء دون مناقشة من أمثال نيكولاسي  
ووالده ؟

وكثيرا ما سألتني صبيو قنا كما اعتاد اصدقائنا ان يسألونا ؟  
- ما الذى اعتزمت ان تكونه عندما تكبر ؟ امحافظ مثل ابيك ؟  
وكننت فى طفولتى احيب نغيا ، وكننت اقولها بحددة وخشونة  
ظالما انثرت ضحك الجميع .  
- طيب ؟ محام ؟ مكتشف ؟

وكننت اعبس غامضا ، وفى نفسى احساس غامض من الخل  
لاتى عجزت عن الجواب . وكان ابي يسرع لئجدتنى . فيغير الحديث  
فى موضوع آخر .

ولقد كان لعظم اصدقائى فكرة او هدف يضعونه نصب اعينهم  
مثل طفولتهم ، يسعون جاهدين لتحقيقه دون ان يحيدوا عنه قيد  
آملة ، وفى النهاية يسمعون بتحقيق احلامهم .

اما انا فقد كان مجرد التفكير فى ذلك السؤال يزعجنى ، واشعر  
بتقصيرى لجهلى بالمكان الذى سوف اشغله ، كما لو كان ذلك هروبا  
منى نحو تادية واجباتى فى المجتمع ، وذلك على حسب تفكيرى كان  
لا يعادله الا شعور الجندي الجبان الذى يفر من ميدان الحرب متحلا  
بأوهى الاسباب .

وحين كنت اخلو لنفسى وابدا فى تحليل رغباتى وميولى حتى  
اصل الى معرفة نوع العمل الذى يروقنى واعتقد انى سافيد وطنى  
به فى صدق وعزيمة اجد نفسى عاجزا تماما عن العثور على ضالتي  
حتى بلغ منى اليأس حفا آمنت فيه بانى شخص فاشل ان يوفق  
فى اى مجال ، وربما انتهى بى الامر فاصبح كما مهملا ممزولا عن  
قادية اى دور هام فى المجتمع .

كنت اشعر بغضاضة فى ان اصير عبدا لابة وظيفة تربطنى فى  
مكان واحد ، كذلك لم اكن قوى البنية مشدود العضلات ميالا الى  
التفكير والابتكار بحيث اختلر العمل الالى او اليدوى ، ولم اكن اهوى  
الرياضيات حتى اكون مهندسا ، ولا علم الحياة والحيوان حتى اغدو  
طبيبا ، وهكذا كانت تمر امامى شتى الصور ، فانقر منها جميعا .  
اما صديقى نيكولاس فكان يصر على ان يصير طبيبا مهما طال  
به الزمن !

وكانت تلك حالتى حتى بلغت الرابعة عشرة او الخامسة عشرة  
وجئت وجه لى احد النواب ذلك السؤال التقيلى مرة اخرى  
وجدت نفسى اجيبه فوراً ودون مسابقة تفكيراً

— اظننى سادس القانون .

وقضى الى بذلك وكان حاضراً ، فایتسم مسروراً  
هل اسعده ان اقرر ذلك اخيراً ، واسلك الطريق الذى طرقه  
قلبى ؟

ذلك ما اعتقدته ، ومن ثم لم اغير اجابتي قط .

— سوف ادرس القانون .

وكما احببته فى مرة سابقة . لم يكن ذلك لحب دفين مقوداً  
او انطلق بالعصايا والعوص فى مشاكل الناس ومتاعبهم . بل انى كنت  
اربعدها لمجرد تصويرى بانى ساقف فى حرم العدالة المقدس اواجه  
القضاء المحترمين والخصوم والمحاميين واللاعبين بالاعطاء والرفقة ،  
واسر مواد القانون بالطريقة التى تقدر راس موكلى من حبل المشنقة  
نظم اجر معلوم

ولكنى وجدت فى تلك الاجابة ملاذاً هاماً به بالى وارتاحت اليه  
تقريباً فلم اعد اشغل قلبى وتفكيرى فى البحث عن مستقبل لى بعد  
ذلك . واذا كان فى ذلك ما يبعث السرور فى نفسى ابى فلا بأس ان  
احدو حدوه . وليكن بعد ذلك ما يكون .

وبجئت فى البكالوريا ، كما نجح ايضا نيكولاس فى العام نفسه  
١٩٢٦ . بعد زواج شقيقتي بضعة شهور .

وان الدهشة لتسبب بى حينما ادى تلك الاموم الطويلة بما  
حصلت من احداث ومشاعر واحاسيس وقد اختصرتها فى صفحات  
قليله تروها فى دقائق ، ومع ذلك فانى ابطل جهدى لاحدك بكل  
قضى واشعر فى بعض الاحيان بانى اضعف اشياء كانت مجهولة لى  
لبنى صاى وطفولتى ، ولم تتكشف لى الا الان .

ومى اكتوبر دخلت كلية الحقوق فى « بواتييه » حيث  
استاجر لى والدى غرفة مفروشة فى احد البيوت الخاصة خلف

ميطس المدينة ، كلن بيتا مستقرا جميلا بملكه السيد بلاتكبان  
وزوجته ، وأعاد لنفسى ذكريات بيوت مدينة فتيلى ووالحة مطيخ  
والدة نيكولاس .

واكاد لرى أبى الآن اتيقا وشيقا نبيل المنظر كما كان دالما .  
يقف على باب غرفتى بعد أن تركتنا صاحبة البيت نخلو لانفسنا .  
كانت جدران الغرفة مغطاة بورق أصفر اللون مزين بوردة  
صغيرة حمراء ، وبها مبرير خشبى متين الصنع عليه حشبة سمكة  
وملاء يضاء ، وأغطية صوفية من نوع ممتاز ، وفى المدفأة نار حمراء  
تأجج ، ومن خلال النافذة تبدو أسطح البيوت المجاورة المغطاة  
بالقرميد الأحمر .

وفتح أبى النافذة ، ونظر يميننا ويسارا ، وكان أحد بلعة  
الفاكهة قد توقف لتوه بعينه أمام باب الدار ، وكانت الساعة لم  
تتجاوز العاشرة صباحا ، والسماء مطبدة بالسحب نلر بأطلسان  
وشبكة الهطول .

— حسنا يا ولدى ؟ —

واظن أبى ابتسمت ابتسامة باهنة .

وفى حركة آلية مضى يفتح ادراج « البوغيه » المجاور لصوان  
ليابى ، لم فتح خلعتى الصوان حيث كانت « الثمامات » تنظر  
ليابى ، لم راح يتأمل قطعة السجاد السمكة بجوار الفراش .  
— ينبغي أن أعود الى لاروشيل .

— أجل .

وكتنا نقف : احلنا فى مواجهة الآخر ، كلانا يشمر بالاضطراب .  
وكان أبى هو الذى نفخ من نفسه الحيرة والاضطراب ، فقال :  
— حسنا ، هذه هى الحياة .

الكلمات قليلة تحمل كثيرا من المعانى والشاعر .

وقبل أن بدلف من الباب خارجا استدأر نحوى وهو يقول :  
— هل سنراك فى أيام السبت ؟

— اعتقد ذلك ، بل من المؤكد أنا لم . . .

— الى اللقاء يا ولدى .

وهكذا تركنى بمفردى أواجه المستقبل معتمدا على نفسى لأول  
مرة .

## الفصل السابع

كنت وقت ذاك فى الثامنة عشر من عمرى ، قوى البنبان  
رشيق القوام نشيط الحركة فخورا بفراجتى البخيرية الجديدة  
التي اهداها لى أبى لمناسبة نجاحى فى البكالوريا ، ولم اعد طفلا  
يلبس البنطلون القصير او حذانا بالصف الثانى ، بل فى المرحلة  
الجامعية انتظم فى ملك الرجال ، والتنفس بملء رئتى فى غرفة  
خاصة بى على ابواب حياة جديدة ، اخطو خطواتى الأولى بغير قليل  
من الرهبة والخوف .

وذهبت الى لاروشيل يوم السبت من ذلك الأسبوع ، ثم كل  
سبت من الأسابيع التالية ماعدا الأسبوع الثالث ، حيث كنت اعود  
الى فرقنى التي خيل الى أنها تغيرت كثيرا، وانردد على قاعة الطعام  
لظلالها واضوائها الحافتة ، حيث تواجهنى نظرات أمى المشدودة  
للأمام وصوت فاشيه الكريه لأذنى ووجهه اللئيم المغفوت .

ولم اتلق من نيكولاس سوى بطاقتين يطمئننى فيهما على أن  
صحته جيدة وعلى أن أموره تسير على خير ما يرام فى بورجو  
وخاصة أن أسانفته الجدد « قوم مهلبون » وأضاف أن لديه كلاما  
كثيرا يملأ عربات سكة حديدية ويذخره لى حتى نتقابل فى اجلة  
عيد الميلاد .

ويدهشنى ان اتبين فجأة كيف تخوننى الذاكرة فأغفل بعض  
التفاصيل الهامة حينما اصل إليها ، او بصيرة أخرى اجد نفسى  
هاجرا من ترتيب الوقائع على حسب توقيت حدوثها وأرى الصور  
تتابع امام ناظرى فى سرعة خاطفة الأمر الذى يتصر عليها وربطها  
بما كانت عليه من ترتيب ونظام .

فمثلا احدى تلك الصور أرى فيها نفسى - يوم الأحد الأول  
من سفرى - واقفا بميدان الجيش بمدينة لاروشيل - واقفا فى  
الردهة الخارجية ادخنى احدى مجازى فى اثناء الاستراحة بينما  
اولمبيا ، ومر بى أحد رفاقى السابقين يتأبط ذراع صديقة  
حسناء ، وما كاد يلحقنى حتى أشار لى بعينه باسمى وكان النطق  
فى تلك الليلة باردا والسماء ملدة بالقيوم فعدت مباشرة الى مقرى

بدار المحافظة ، وكانت شقيقتى وزوجها يستقبلان بعض الاصدقاء  
فى غرفة الجلوس ويتحدثون جميعا بصوت مرتفع ، قتلعت  
مباشرة الى غرفتى التمس بين جدرانها الباردة دفئا .

ومنظر آخر فى بوائبه : فى الاحد الثالث الذى لم اسافر فيه  
الى لاروشيل ، حيث طلت السماء مغطى متوارا منذ الليلة السابقة،  
وفى الصباح كانت الطرقات كلها مغطاة بالجليد . فانطلقت الى  
المشرب وانتحيت مائدة منعزلة ، احتسى كاسا من الجعة واراقب  
بعض طلبة الصف الثالث وهم يلعبون البلياردو .

صور كثيرة انشرها امامى كأوراق اللعب ، ومن بينها ايضا  
ما حدث فى ليلة عيد الميلاد حينما كنت اجلس مع صديقى نيكولاس  
فى احد مقاهى لاروشيل نتحدث ، واذا امسك نيكولاس بطرفى  
حديث ، فلك ان تراهن بما شئت انه لن يكف ابدا عن الخسوس  
فيه ، وهكذا ظل يتحدث فى موضوع واحد حتى الواحدة صباحا  
حينما اوصلنى فى الطريق الى باب المحافظة .

وقال : لا بد من ان نجد من يشاركنا فى عطلتنا ، ولسوف امضوا  
على ضالتنا سريعا وحتما .

وكانت لمة شجرة عيد ميلاد هائلة الحجم تحتل غرفة الجلوس  
لم تكن لنا ، انها شجرة رسمية اقيمت من اجل اطفال وابناء موظفى  
المحافظة والموظفين انفسهم ، ولقد احتفلوا جميعا باخذ هداياهم من  
بين فروعها عصر ذلك اليوم ، وكانت اخى قد انطلقت مع قاشيه  
لمشاهدة بعض الاحتفالات الليلة وامى نائمة ، ووجدت ابنى يقرأ فى  
هدوء بفرته وفى ركنه المحبب الى نفسه ، وكان دخان النيكوبلا  
الغرفة اكثر من دى قبل .

— ميلاد سعيد يا ابنى .

— ميلاد سعيد يا ابنى .

— هل امضيت وقتا طيبا ؟

— تحدثنا طول السهرة ، انا ونيكولاس فى مقهى دى لاية .

وكانت معرفته بنيكولاس سطحية يراه حين يحضر لزيارتي .

لكنه لم يستوقفه ولم يتحدث معه .

— من «علاء» على ما يرام ؟

— نعم ، لقد بكرت في اللعاب إلى فراشها كعادتها وساحت  
بطلوها بعد قليل ..

ولا ريب في أنه كان يريد الانتهاء من الباب الذي يقرا فيه لئلا  
يرما الكتاب كله .

— طابت ليلتك ؟

— طابت ليلتك ..



واستيقظت في الصباح التالي محمومة ، الأم لظيعة في كل  
جسمي ، طعم مرير في لساني ، وحين حاولت النهوض اصطفت  
وكبتاي فلم تقو ساقلي على حملي ، ولم تمض سوى ساعات حتى ظهر  
البرد على وجهي فاحمر اتني ، وأصابني الصداع حتى كاد ينفجر  
له رأسي ، ويبدو أنه كان لدى استعداد للأصابة بالانفلونزا ؟  
وشجها السهر الطويل ؟

وامضيت ثلاثة أيام لا أظع عنى منامتي ، أجر جسمي النهوة  
تقلًا في صموية بالغة من الفراش إلى المقعد الكبير ذي المسندين ؟  
أحاول القراءة أحيانا ، لم أطلع من النافذة أحيانا أخرى ، وكرهت  
السجائر فقد كان للدخان مذاق كريه في فمي ..

كان عبد الميلاد في ذلك العام شديد القسوة قارص البرودة  
بمراجه هبظت عدة درجات تحت الصفر فتجمد كل شيء ، حتى  
الحياة نفسها تجمدت عن الحركة ، وكى الساعات الأولى من  
الصباح كنت أشاهد المؤمنين الذين هرموا لحضور قداس الضياع  
إلى الكنائس ، والمخمورين الذين لفتتهم المشروب والحانات بصد  
سهر طويل ضحكوا وعبثوا ورقصوا فيه ما شاء لهم المرح ، وكل من  
أضطرت ظروقه للوجود خارج الأبواب في تلك الساعة كانوا يرتدون  
وقد غطى الجليد رؤوسهم حتى أقدامهم ، وكأنه العيون المنفوش  
يل خيل أن السماء والأرض حتى الحجارة التي كبدت منها المتأزق  
وأرصفة الطرق وأعمدة الصابيح كلها كانت لتضع يديها ناصع  
لأنها نصائل سيوف أو تخنجر حادة ماضية ..



واقبلت طباحتنا ياتريس لحمل لي افطاري ، ولكنني نحيثه  
جائيا ولم المسه وبعد ذلك جاء ليى بمنامته وروبه المنزل .  
- امريض انت لا .

- اتفونزا بسيطة على ما اعتقد .

ومكث بجواري حوالى عشر دقائق لم انطلق الي مكتبه ، وبما  
ليسنائف القراءة .

ولم سيقظ شقيقتي وزوجها الا وقد اتنصف النهار، فحضرا  
بعد الغداء لزيارتي ، دخلت اوليت في تردد تسالني عن صحتي  
وهي تحتلس النظرات نحو زوجها الذي رفض الدخول الى غرفتي  
وظل واقفا بجوار الباب المفتوح لانه يخشى الاصابة بالعدوى . ثم  
عجلا بالانصراف معتلرين بمشاعلهما .

ولم ينصل بي نيكولاس تليمونيا في ذلك اليوم ، ولا في اليوم  
التالي ، حقيقة لم يكن بيننا موعد محدود لاي لقاء ، ولكننا كننا  
منفقين على قضاء الجزء الاكبر من اجازتنا معا ، الامر للذي ضايقتني  
لعدم سؤاله عني .

لماذا شعرت بالضياغ والوحدة ؟ كان كل ما حولي صامتا ساكنا  
سكون القبور : دار المحافظة ذات الطوابق الكثيرة والاجنحة المتعددة  
وعشرات المكاتب والغرف التي لاسطو ابدا من الحركة والعمل  
والوظفين والسماة واصحاب المصالح والاعمال - كانت كلها مهجورة  
نخاوية على عروشها في عطلة عيد الميلاد .

حتى حركة المرور في الميدان الكبير كأنما قد اصبحت بالشلل !  
عدد ضئيل من السيارات ، اقل كثيرا مما اعتدنا رؤيته ، ونفر  
قليل من المارة بهرولون سرعين وقد دسوا ايديهم في جيبسوبهم  
ورملوا باقات معاطفهم على حين كنت ألح حطقات كثيفة من الدخان  
وينبعث من اتوتهم واقواهم تطوف حول رموسهم .

والاكر اني رايت اميرة تمضي في الطريق - قرب الظهيرة -  
لعلها كانت في سيارتها لزيارة جد او جدة لمناسبة العيد - مؤلفة  
من خمسة افراد - من بينها ثلاثة اطفال . ارتلوا جميعا تيساب  
العيد الجديدة الزاهية . واحد الاطفال في الرابعة او الخامسة

حول رقبته وشاح ثقبيل أحمر ، وقوق رأسه طاقية صوفية حمراء ، وكانت أمه تجذبه وتجره على عنف وقوة حتى يسير وهو في عناده العجيب يبدو مشاكسا لا يريد .

ويبدو أن الوالدين كانا في عجلة من أمرهما ، أعصابهما قلقة متوترة بعد سهر طويل وصباح حافل بالصخب والضجيج مع ما اقتضاه ارتداء الجميع ثيابهم من عناء وجهد كبير ، فكنت أرى أفواههم تفتح ثم تغلق دون أن أسمع حديثهم من خلال زجاج نافذتي ، وأخيرا دفعت الأم طفلها الصغير في ظهره فسقط متزحلقا بشبابه الجديدة فوق الأرض المبتلة .

ولابد أنها كانت تأمره بأن يستوى على قدميه ، وتهدهد بهجرمائه من لعبه وهداياه أو بآية عقوبة أخرى ، ولكن الشيطان جمل أذنا من ظنن ، وأخرى من عجبين ! وكأنه وجد متعة عميقة في أن يسير أصاب والدته إلى النهاية ، فلما نفذ صبرها وضاق صدرها تحولت نحو زوجها تنفث ثورتها وتصب عليه غضبا ، ولا شك في أنها اتهمته بالوقوف ساكنا مكتوف اليدين كأنما الأمر لا يعنيه ، ووصمته بالضعف والتخاذل وتدليله للأولاد وإفساد أخلاقهم ، أو شيء من هذا القبيل .

وكان يرتدى معطفا قديما أسود اللون ، ووقف برهة مترددا يبعث لصباحها في ضيق ، وأخيرا جذب وليده من يده جذبة قوية حتى أقامه على مساقيه ، ثم لطمه على وجهه في عنف ، لا أشك أبدا في أنها آلمت الأب أكثر مما تآلم لها الطفل .

وقد هزنتي تلك اللطمة ، فوثبت من مكاني كأنما قد لدغني عقرب ، وفي تلك اللحظة شعرت برباط خفي يجذب بين روحينا أنا وذلك الأب المسكين ، وقد ما كانت دهشتي حينما رفع نظره إلى أعلى وشاهدني خلف النافذة ، ولا أستطيع أن أصف لك معاني الأسف والخجل التي قرأتها في وجهه تلك اللحظة وهو يطأطأ رأسه كأنه يستدر للتدبيل بأسرها عما فعل .



لم يحصل بي نيكولاس في اليوم الثالث ،

وفي اليوم الرابع سمعت طوقا على الباب فقلت « ادخل »  
واذا به نيكولاس يحمل معه نسيم الحياة والدنيا خارج تلك القبرة  
التي اسكنني فيها الرض ، وكانت ليابه ميتة بالماء ملبها بعض  
أثار الجيد .

- قبل لي : انك لست على ما يرام ، وارجو ألا يكون الامر  
خطيرا ؟

ولم يثريث حتى أجيب ، كان متحفزا ممتلئا بالانباء التي  
يدخرها لي بتلك التطورات التي بدأت تحدث له في بوربدو . وقع  
أصيرا لها ولم يستطع الفكك منها .

- لدى سيل من الانباء يا صديقي العجوز ، انباء طيبة ، انباء  
مشيرة سوف تجعلك تغفر من فراشك في التو والساعة ! اذكر  
ما كنا نتحدث فيه ليلة عيد الميلاد ؟

كانت وجنتاه محمرتين بعد أن لفحته برودة الهواء القلوص  
الى الخارج ، ولم ينتظر حتى يجلس ، كان يتحرق انفعالا ، نافذ  
الصبر غاضبا حينما رآني اجلس هادئا في مقعدى الولير ونسب  
دثرت ساقى بغطائي الصوفى الثقيل وكانى عجوز كسيح ، وبالقرب  
من يدي ابريق من البللور به عصير الليمون .

وكان يصيح في أنفاس لاهته ، كأنما قد قطع الدرج الى غرفتي  
هدوا .

- ابشر يا ولدى ! لقد واتاني الحظ السعيد بمحظية  
موفقة و . . .

- اسمح لي بالتدخلين ؟

- بالطبع .

- واثقت ألا تدخلين ؟

- ليست بين رقبة الآن .

- أهرنى سمعك واتصت جيدا لما أقول : اننى سأبحث لك مع

هروس معتارة ولعلى أوفق .

ولقد كان نيكولاس يتميز على الدوام بروحه التي تفيض دعاية  
ومرحا .

ولابد أنه قد صعد لجمودى وهدم تجاربه لروحه المتلهفة  
وحماسته المتدفقة ، كتبت أتصت إليه دون اهتمام أو اكتراث ، وهو  
الذى يحاول أن يكسب كلماته رنين النصر ، وما كان ذلك حسنة  
منى لما نال من نصيب قد حرمته ..

وجلس أخيراً على أحد المقاعد يوضع عكس وجهه إلى المسئلة  
عائداً ذراعيه حول ظهر المقعد . وهو يجلب أنفاس سيجارته من  
بقيين لآخر وعيناه تلمعان بظلمة وسروراً حتى قضينا سهرة ممتعة  
على شتى الأحاديث .

### الفصل الثامن

كنت أمر خلال أهم عامين من مراحل حياتي ، بل أجمل وأخطر  
لحظات عمري ، ومع ذلك فلم أكن أدرك ذلك ، ولم أكن لأعترف به  
لأى مخلوق فى الدنيا ، ربما كان ذلك لوجود فارق كبير بين ما كنت  
أمل فى أن يحدث لى ، وما وقع لى فعلاً ، ومن العسير أن توظف  
أى إنسان من حلم جميل للبدل إلا إذا ركنته بقوة .

وحتى الآن .. مازالت تلك المحاورة الخالدة التى تدور بين  
إتبار السن ومن بصفرونها .. تبحث فى نفس الكثير من الحنقا  
والغضب ، بل لقد شاهدتك بنفسى حين سمع ذلك السؤال ..  
فتكلم فى نفسك برلمك فى شك ولوتيب :

- كم عمرك أيها الفتى ؟

ويجب التباين متروكاً ، لأنه تعلم أن يتأدب مع من يكبره ..  
- ثمانية عشر عاماً يا سيدى .

والاجابة هى هى دائماً لا تتغير ، فالسائل يهتف متكلفاً الدعابة  
والضحك :

- أحلى أيام العمر ، أتى لأهبط ما أملك حتى أعود لذلك العمر  
مرة أخرى ، وربما أودف وهو يتشهد من أعماقه :

- على شرط أن يكون لى ما لدى الآن من تجارب ..

أى تجارب يعينها ذلك الأحق ؟ هل الإنسان لى يستطيع لى

حياته الواقعية أن يقف يظموحه عند خط مرسوم : أو يطفىء كلماته الشديد الوصول - مهما فعل - الى قمة الاشباع والاكتمال الانهائى : كانكم ايها الشباب لم تصلوا الى تلك النتيجة بعد !

ويتشوقون من برادة الطفولة وجمالها كان اطفالنا لا تواجهم مثلك ان يدرجوا على الأرض ، مئات المصاعب والمشاكل المولة التي يتحاولون مناقشتها بينهم وبين انفسهم .

ونحن نتلطف في شره ونهم على السعادة ، ونشعر بأنها في مشاغل ابدينا : ولكن ما تكاد نملك بها حتى تفلت من بين أصابعنا كالرقيق ، ونقبض على الهواء بسبب لافه لم يكن في الحسبان قد يكون مجرد ابتسامة ساخرة أو كلمة تفلت منا دون قصد !



ولقد حدثت بالأمس إحدى تلك المشادات العاتية العنيفة التي تلقاها تحدث في حضورك بل لعلمها الوحيدة التي شهدتها أنت ولو وقعت لي ظروف أخرى ما كلفت نفسي هناك الإشارة إليها في هذا المقام وخاصة أني الآن أحدثك عن شبابي : ولكنها كانت مهزلة لم تخل من فائدة ومفردى حقيق في الوقت نفسه : ولذلك نانا ذكرها لأنها جاءت في الوقت المناسب لترسم صورة ناطقة عن سلوك الأبناء نحو الأبناء !

ومن الغريب أنه لم يكن لمة أية مقدمات ، أو كما يقولون (الإنجيلير) عاصفة والسما صافية ) ، وكنا نجلس على مائدة الغذاء بهوالى الواحدة والشمس تفرقنا بأشعتها الساطعة والجو بديع وكل شيء جميل حتى زهرة الجراتيوم الملوكة للأنسة أوغستين كانت كأنها ترقص من السعادة .

ولا أتذكر قيم كنا نتحدث : لكنه كان حديثا مرحا لا أهمية له حينما التفتت أمك فجأة وكنت قد نسيت أنه يوم الخميس .

— هل ستأتني متى لتزور عمتك يا جان بول ؟

ولم أكن أعلم أن عمتك تقيم حفل استقبال في بيتها ، كذلك كنت أتصت للحديث بنصف أذن : وسمعتك تسألها :

— مثنى ٢ —

— حوالى الخامسة ، وسيكون هناك بعض الشخصيات ممن يفيدك كثيرا ان تعرف بهم .

وكنيت اكره هذه العبارة ، ومع ذلك فلم تطرف لى عين ، ولم اشأ أن أؤثر عليك ، ولمحت التردد والحيرة فى عينيك ، وكنيت افهم ذلك جيدا . . التردد الذى يصيبك وبمصيب كل الشبان فى سنك حينما تعترضهم عقبة من الصبر تخطيها ، ولا بد من تخطيها أيضا .

— هذا نى يوسف له حقا يا «امام» .

— ولماذا ؟

— لان على واجبا منزليا لابد ان انهيه عصر اليوم فى الرياضة والحساب .

— ولماذا لا تبلّوه فورا ؟

ولارىب فى أن من حق امك — وقد غدوت رجلا ملء لياك — ان تغضبك امام الناس ، ولكنها تفعل عن ان اصداقها لا يمكن بالضرورة القصوى ان يكونوا اصداقك ، وانك لا تشعر بأى حب او رابطة تربطك بمن يترددون على صالون فاشيه او عمتك آرييت ، ولا يروك ذلك الوسط او يبعث فى نفسك أى صدى من متعة او اهتمام تماما كما اشعر أنا شخصا .

— سأحاول ذلك يا امام مادامت هذه مشيئتك حقا ، ولكنى لن أستطيع ان أؤكد لك .

وكان من عادتها — اذا ذهبت لحدى حفلات الكوكييل التى تقيمها عمتك — ان تعود على العشاء ، وكثيرا ما كانت تتصل بنا ليعونينا وتطلب ان نتناول طعامنا يدونها ، فلماذا عادت هذه المرة فى وقت مبكر وفى حالة نفسية نائرة ؟

ولقد وجدت صدقك الجديد — زابو — معك فى شرفتك ، وام تبد أى تعليق على ذلك وقتئذ فى مواجهته ، يبعد انها ما كادت يجلس للعشاء حتى انطلقت تنف من غضبها .

تخاطبتنى قائلة :

— آلين ! انصرف لما ذالم يستطع جان بول مراقبتى عصر اليوم ؟  
ويبدو انى اصاب بالصمم احيانا .  
— ألم تسمع ما قلت ؟  
— بلى طبعاً .

— ولماذا لا تقول شيئاً ؟

— هل سمعته يتحدث عن واجب الحساب المنزلى الذى كان  
« من الضروري » ان ينهيه ؟  
— اجل .

— وهل تعلم ما ذلك الواجب الذى حال بينه وبين مراقبتى ؟  
ويدأت أنت تقول فى هدوء :

— ارجو ان تعيرنى سمعك يا اماء ، دعيتى اوضح الامر لابى .

— ليس هناك ما يدعو للايضاح ، هل حصل او لم يحصل انى  
وجدتك مختلياً بصديقك الجديد الذى يشبه فى منظره باعة  
الروبايكيا ؟

— انا ؟

— هل كان لمة موعد سابق بينكما ؟

— سوف . . .

— وبعبارة اخرى : كنت تعلم انه آت ومن اجله هو . . .  
ثم تحولت الى . . .

— ان ما يبحث فى نفس الضيق والاشمئزاز هو افتقاره الى  
الصدق والصراحة ، واعتياده التلاعب والكذب ، وطريقته الخبيثة  
الى اصراره على ان يفعل ما يريد ، وانت ! أنت تجلس امامه تعفده  
وتؤازره !

— انى لا اعضده ولا اؤازره ؟

— ولكنك لا تؤيدنى ابشاً ، ولا شك انك مسرور لذلك .

لا ، لا ! واذا شئت الصدق فانا الومكما معا فى قرارة نفوسى ،  
وخاصة والدتك لانها بالغة الرشد .

لقد تنامت أو نمت أيام أن كانت على كفى مثل معرفة ، لكني  
لم اتسه ، وذلك هو الفارق بيننا ! فقد افسدت يميننا لا احنت قلبنا ؟  
يبنى حزين نفسى الا انسى ، ولقد بلدت جهلى حتى الآن كفى انا  
احافظ على قسمى .

انه كذاب ، مخادع ، يروغ من بين اصابعك ، كما تروغ  
السمعالى ، ومع ذلك لو انك تبدو هادئا ناعم البال ، ترمقه فى رضا  
واستحسان .

والذلك تخلق بين الموافقة أو الرضا ، وبين الفهم أو الإدراك  
المعروف .

وربما كانت هى أيام شبابها كذابة مخادعة ، حتى لو كانت قد  
كفّت الآن من الكذب والخداع . . تماما كما كذبت أنا ، وكما يكذب  
بعض الفتيان أيضا ، ويجنون انفسهم مرتعنين على الكذب ، لأن  
الآباء يقرضون طيهم قائمة طويلة من المحرمات .

كثير مما نهوا اليه قلوبهم ممنوع متعا بالنا ، وكلمة (لا) النهائية  
تبدأ كل جملة توجهها اليهم . . ونحن المستولون من انحرافهم  
وخداعهم لنا وكذبهم علينا .

ومع ذلك فالطفولة تمتد الخداع والكذب أكثر منى نحن  
الكبار ، وهم يستامون فى اعماقهم من ارقامنا لهم على الكليل  
معتسرين طهارتهم التى خلقوا طيها حتى لا نفسد طيهم منمهم  
البرشة .

ونحنما اقول لك فى هدوء وحب وحشاش  
تطابت ليلتك يا ولدى .

\*\*\*







الدار القومية للطباعة والنشر



وزارة الثقافة والإرشاد القومي

# الدار القومية للطباعة والنشر



تعمل على تحقيق الترقية الثقافية التي تاردها الرئيس جمال عبد الناصر

## المُتَاهِرَة

مركز عالمي للإشعاع الثقافي  
كتاب كل ست ساعات



كتب التلاوة

نور الدين

البرازيل

عالم

القولون

القاهرة



Biblioteca Alexandria



0540430

